يَا بُنَيَّ!

مَوْعِظَةُ لُقْمَانَ لِابْنِهِ

د. عويض بن حمود العطوي

تدبر
مركز تدبر للدراسات والاستشارات

يا بُنَيَّ!

مَوْعِظَةُ لُقْمَانَ لِابْنِهِ

الطبعة الثانية
١٤٣٥هـ - ٢٠١٤
الرياض - الدائري الشرقي - مخرج ١٥
هاتف ٠١١٢٥٤٩٩٩٣ - تحويلة ٣٣٣
ناسوخ ٠١١٢٥٤٩٩٩٦
ص.ب. ٩٣٤٠٤ الرمز: ١١٦٨٤
البريد الحاسوبي: tadabbor@tadabbor.com
www.tadabbor.com

. . . .

© عويض حمود العطوي، ١٤٣٥هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
العطوي، عويض حمود
يا بني، موعظة لقمان لابنه، عويض حمود العطوي - ط٢- الرياض ١٤٣٥
٩٤ ص؛ ١٥ × ٢٠سم
ردمك: ٩-٤٤٣٨-٠١-٦٠٣-٩٧٨

١- لقمان (عليه السلام) ٢- قصص القرآن ٣- الوعظ والإرشاد
أ. العنوان
ديوي ٢٢٩,٥   ١٤٣٥/٢٣٠٥

رقم الإيداع: ١٤٣٥/٢٣٠٥
ردمك: ٩-٤٤٣٨-٠١-٦٠٣-٩٧٨

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس المحتويات

فهرس المحتويات	٥
مدخل	٧
مطلع الموعظة	٩
الوصية الأولى: عدم الشرك بالله	١٣
الوصية الثانية: بر الوالدين	١٩
الوصية الثالثة: لا طاعة في معصية	٢٩
الوصية الرابعة: رقابة الله	٣٧
الوصية الخامسة: الصلاة	٤٧
الوصية السادسة: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر	٥٥
الوصية السابعة: الصبر	٦٣
الوصية الثامنة: التواضع	٧٥
الوصية التاسعة: القصد في المشي والغض من الصوت	٨٥
فهرسة أهم المصادر	٩٣

فهرس المحتويات ٥
مدخل ٧
مطلع الموعظة ٩
الوصية الأولى: عدم الشرك بالله ١٣
الوصية الثانية: بر الوالدين ١٩
الوصية الثالثة: لا طاعة في معصية ٢٩
الوصية الرابعة: رقابة الله ٣٧
الوصية الخامسة: الصلاة ٤٧
الوصية السادسة: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ٥٥
الوصية السابعة: الصبر ٦٣
الوصية الثامنة: التواضع ٧٥
الوصية التاسعة: القصد في المشي والغض من الصوت ٨٥
فهرسة أهم المصادر ٩٣

مدخــــل

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله... أما بعد:

فهذه وقفات مع آيات، تتعلق بموعظة لقمان لابنه في سورة لقمان، ولا يخفى على كل مسلم عظم شأن القرآن وما فيه من آيات ونُذر، وبصائر وعِبَر، وتوجيهات ودرر، لا بُدَّ لنا أن نفيدَ منها، وأن نتوقفَ عندها، ومن ذلك هذه الوصيةُ العظيمةُ التي تُعدُّ نبراسًا يُحتذى به، ومنارًا به يُقتدى، في سماءِ التربيةِ، وفضاءِ التوجيهِ، قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ
لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ
يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا
ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ
لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ
لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ
مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾

﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ١٦ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ١٧ وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ ١٨ وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ﴾ لقمان: ١٢ - ١٩

وقد قمنا بتحليل هذه الآيات وحاولنا ربطها بما يتصل بالتربية، ونرجو أن يفيد منها قارئها والمطلع عليها، والله ولي التوفيق.

د. عويض بن حمود العطوي
وكيل جامعة تبوك للفروع
Dr.abhal@gmail.com
www.alatwi.net
@DrAlatawi

مطلع الموعظة

لو تأملنا هذه الوصيةَ الجامعةَ الشاملةَ لوجدناها بَدأت بالثناء على الموصِي بصفاتٍ يكونُ بها أهلًا للوصية، وجُمعَتْ تلك الصفاتُ في صفةٍ واحدةٍ هي (الحكمة)، كما قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾، وإنما قال سبحانه: ﴿ءَاتَيْنَا﴾ دون (أعطينا)؛ لأنَّ الحكمةَ أمرٌ معنويٌّ، ولأن الحكمة ليست ملكًا خاصًّا لأحدٍ، بل يؤتيها الله مَن يشاء.

وهي جماعُ الخيرِ كلّه كما قال سبحانه: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ البقرة: ٢٦٩، ولهذا جعلها سبحانه صفةً لرسلِه وأنبيائِه، ولهذا أمرَ سبحانه بالشكر على هذه النعمةِ وتلك المنّةِ فقال تعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾، فهل سعينا نحن لاكتسابِ هذه الحكمةِ؟ وهل سألنا ربّنا أنْ يهبَهَا لنا، وأن يوفّقَنا إليها؟ وهل شكرْنا ربّنا عليها إذا هُدينا إليها؟

هذه الحكمة تمثلت بصورٍ عمليةٍ في وصيةِ لقمانَ لابنه، لأن التربية مِن أصعبِ المهامِ وأخطرِها، وهي أحوجُ ما تكونُ إلى الحكمة، التي هي وضعُ الأمرِ في موضِعِه.

فلنبْحرْ في هذه الوصيةِ العظيمةِ، التي خلّدَها اللهُ في كتابه العظيمِ، لتكونَ لنا وللعالمين منارةَ هُدىً، ومَعْلَمَ توجيهٍ في هذا المجال الكبيرِ المهمّ؛ ألا وهو التربية.

﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ ﴾، لنتأمل ذكر القولِ في بدايةِ هذا التوجيهِ، فهو يدلُّ على ضرورةِ وجودِ حواراتٍ ولقاءاتٍ مع الأولاد، وأن يكونَ توجيهُ النصحِ لهم برفْقٍ ولينٍ، ولو تأمّلْنا واقعَنا؛ فربما نجد بعضَ الآباء لا يُولي هذا الموضوع اهتمامًا، فليس في برنامجه وقتٌ للحديث مع أبنائِهِ وبناتِهِ، بل هو يعتمد على الطوارئِ والأحداثِ الملمّةِ لتتحرّكَ فيه مهمةُ الوعظ والتوجيه!

ومن الملحوظ أنّ الله ﷻ قال: ﴿ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ ﴾؛ إذًا هي موعظةٌ، والموعظة تعني الرِّفقَ واللين، تعني ما يرقِّقُ القلب، ويؤثِّر في النفس، فليس المرادُ هنا التجريحَ والتشفّي، بل اللُّطفُ والشفقةُ، والتذكير بما يحركُ الشعور، ويؤثر في الوجدان.

إنَّ بعضنا اليومَ -خصوصًا في محيطِ المثقفينَ- يرى الموعظةَ أمرًا غيرَ مهمٍّ، أو غيرَ مناسبٍ، ولهذا إذا أراد أن يحكمَ على كلامٍ بالسطحيةِ والسذاجةِ، قال: هذا كلامٌ وعظيٌّ، والصحيحُ أنّ كلَّ قلبٍ محتاجٌ إلى الوعظ والتذكير بما يرقّقه ويهذّبُه، حتى يحصلَ التوازنُ في الحياة، إنَّنا نحتاجُ أن نخاطبَ الروح كما نخاطبُ العقل، والموعظةُ الحقّةُ هي التي تشمل ذلك كلَّه، كما حصل في وصية لقمانَ لابنه.

ومن اللطف والرقة الأسلوب الذي نادى به لقمان ابنه حيث قال: ﴿ يَٰبُنَيَّ ﴾، يا لها من كلمةٍ ما ألطفَها! ولفظةٍ ما أجملَها! تختصر كلَّ صور العلاقة بين الأب وابنِه، إنها كلمةٌ تخاطبُ وجدانَ الابنِ، لأنها تتلمسُ أعظمَ الروابط بين الأبوّة والبنوّة.

والذي يزيدُها جمالًا وتأثيرًا ذلك التصغيرُ (بُنيَّ) لِمَا فيه من التمليحِ واللُّطفِ، وهذا النمط مهمٌّ في مخاطبة الأبناء، فليس بالضرورة أن يكون النداءُ بالاسم الجافِّ، بل الأحسنُ أن يُنادَى الابنُ من خلال ما يذكِّرُه بهذه الرابطة، وكذلك الأبُ، ولهذا نادى إبراهيمُ ولدَهُ فقال: ﴿ يَٰبُنَيَّ ﴾ الصافات: ١٠٢، وكذلك فعل نوح: ﴿ يَٰبُنَيَّ ﴾ هود: ٤٢،

ونادى إبراهيم أباه: ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ مريم:٤٢؛ لكنَّ أباه ناداه باسمِهِ في سياق الغضبِ والشدةِ، فقال: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ مريم: ٤٦، لم يقلْ: (يا بُنيَّ)، فاللُّطفُ لغةُ الأنبياء واللّين في الخطاب سمةُ الأتقياءِ، فما حالُنا نحن مع أبنائِنا وبناتِنا، وهل من مراجعةٍ لطريقةِ حوارِنا وحديثِنا معهم؟

الوصية الأولى

عدم الشرك بالله

﴿ يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ﴾

هذه أُولى الوصايا في هذه الموعظة، لتنظر بماذا بدأت؟ قال: ﴿ يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ﴾.

لقد نبهه على أساسِ الأمرِ ودعامتِه، أوصاه بالتوحيد، بما ينبغي عليه أن يعتقدَه، وهذا ما لا يخطر ببال بعض الآباء لغفلتِهمْ، وبعضُهم يُعلّل ذلك بأننا موحّدون مسلمون، فما الداعي لذلك؟

فعلى الرغم من أنّ لقمانَ وابنَه كانا مؤمنَين، ومع هذا لم يُهمِل لقمانُ هذا الأساسَ العظيمَ، الذي دعا إليه كلُّ الأنبياء قبل الدخول مع أقوامِهم في تفاصيلِ العبادات.

لا تقل أيها الأبُ: المدرسةُ تكفي، كلاّ، بل عليك مسؤوليةٌ خاصةٌ في هذا الأمر، عليك أن تجلسَ مع أولادِك بين الحين والآخر تحدثُهم حول هذا الموضوع، تبينُ لهم خطرَ الشرك، وصورَه، ولا تقل: هذه أمورٌ معلومةٌ، كلاّ، بل حقيقتُها قد تكون مجهولةً عند كثيرٍ من الأولاد، تنبهُهم على خطرِ السحرِ والشعوذةِ، والدجلِ والخرافةِ، حتى لا يقعوا في مصيدتِها مع تقدّم وسائلِ الاتصال، فإذا لم يُوجَدْ رادعٌ ذاتيٌّ في دواخلِهم فلن يستطيعوا معرفةَ ذلك ومراقبتَه.

بيّنْ لهم عظمةَ الخالقِ، وقدرتَه سبحانه، وتفرّدَه بالخلق والأمر، وضرورةَ صرف العبادةِ له وحدَهُ، وضرورةَ مراقبتِه سبحانه في السرّ والعلن، وهذا ما اشتملَتْ عليه هذه الوصيةُ العظيمةُ، فكلُّ ذلك يبني في نفوسهم رقابةً خاصةً، تُسهمُ في تهذيبِ سلوكِهم وتقويمِ أخلاقِهم.

وادعُ لهم بأن يحفظهم الله من شره، فما هناك أحد معصوم، تأمل كيف كان يدعو إبراهيم ﷺ: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ إبراهيم: ٣٥ ، فهو يخاف على نفسه وعلى أبنائه من هذا المزلق وهو نبيٌ، فكيف بحالنا نحن! أعندنا براءة من الشرك نحن وأبناؤنا، كلا؛ لذا علينا أن نخاف من مزالق الشرك والإلحاد، ونحذر منها، ونحذّر أبناءنا منها كذلك.

وإنما نهى لقمانُ ابنَهُ عن الشرك؛ لأنه الخطرُ الأعظمُ على عبادتِه، ولأنه ظلمٌ في حقِّ الخالقِ سبحانه، وحقِّ المخلوق أيضًا، لهذا علّل له فقال: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾، وقد نبّه النبيُّ ﷺ الصحابةَ الكرامَ إلى خطورةِ هذا الظلمِ لمّا نزل قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ﴾ الأنعام: ٨٢، فشقّ ذلك عليهم، وقالوا: يا رسولَ الله، وأيُّنا لم يظلمْ نفسَه؟ فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «ليس ذلك، إنما هو الشركُ، ألم تسمعوا قول لقمان لابنه: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾؟» [متفق عليه].

وهذا التعليلُ مبدأٌ تربويٌّ عظيمٌ، يغفلُ عنه كثيرٌ من المربّين، فالشأن عنده ليس أمرًا ونهيًا فحسب، بل تعليلٌ وبيانٌ وإيضاحٌ، وهذا هو لبُّ التربيةِ السليمةِ، فالولدُ يعلم لماذا نُهي أو أُمر، ولهذا فهو لا يعاندُ ولا يشاكسُ.

فعليك -أيها الأبُ الفاضل- أنْ تهتمّ بهذا الأمر، فلا تُلغِ عقلَ أحدٍ من أولادِكَ، فإذا أمرْتَ أو نهيتَ؛ علّلْ لهم ذلك، وهذا لن يكونَ إلا في مساحةٍ كافيةٍ من الهدوءِ واللُّطف والراحة.

وليكنْ في تعليلك من الإقناعِ ما يكفي، ولو سألك ابنُك عن المزيد؛ فأجبْه وحاورْه، ويهذه تكسبُه وتؤثِّرُ فيه، ويكون قُرَّةَ عينٍ لك.

وهكذا فقد طوينا صفحاتٍ وأمضينا لحظاتٍ مع جزءٍ من تلك الوصيةِ العظيمة، ورأينا كيف اشتملتْ على أُسُسِ التوجيه المطلوبةِ، ولعلَّ مِن أهمِها:

أولًا: اكتسابُ المهاراتِ اللازمة للتوجيه، ومن ذلك الحِكْمَةُ التي لا تحصل إلا بالعلمِ والتجربة، فماذا فعلت أيها الأبُ لتكتسبَ ذلك؟ هل قرأتَ وتفقهتَ؟ هل سألتَ وتعلمْتَ؟ هل مارستَ وتدربتَ؟ الأمر إليك، فاعمل من أجل أبنائك، فهم رأسُ مالِكَ.

ثانيًا: الرفقُ واللّطفُ ونصحُهُم على انفرادٍ، وهذا ما يتمثّل في الوعظ، فتنبهْ لهذا، وابتعدْ عن العنف والشدّة، والتجريح والتقريع ولا تحولْ النصيحةَ إلى فضيحةٍ.

ثالثًا: بناءُ جسورِ التواصل، وذلك بالقربِ المكاني، واختيارِ اللفظ المناسب، المُشعِرِ بالقرب والمودة (يا بُنيَّ)، وإذا كنتَ تجدُ في ذلك صعوبةً؛ فتدرّبْ على ذلك وابحث عن الوسائل المُعينةِ عليه، كاللعب مع أولادِك، ومشاركتِهم أفراحَهم وأتراحَهم، حتى تتقاربَ

القلوبُ والنفوس، عندما تكونُ مهيأةً لقَبول الوعظِ، جرّب أيها الأبُ أن تجلسَ بجانب ولدِك وأن تضعَ يدَكَ على رأسِهِ وكتفِهِ، وتقولَ له: (يا بُنيّ)، فتأكد أن هذه الكلمةَ مع هذه الحركةِ من المسحِ واللمسِ، تؤثّرُ أضعافَ الكلامِ الذي تقولُه في غيرِ هذه الحال، وتُزيل أيَّ حجابٍ بينكَ وبينَهُ، وتفتحُ قلبَه للقَبول، عندما يخجل أنْ يخالفَك، وتميلُ نفسُهُ إلى طاعتِك وموافقتِك.

رابعًا: اختيارُ الموضوعِ المناسب، وتقديمُ الأهمّ فالأهم، وقد يختلف ذلك من موقفٍ لآخرَ، ومِن ابنٍ لآخرَ، ومن موضوعٍ لآخرَ، فحاولْ تقييمَ الأمورِ، وابدأ بالكلياتِ والمهمّاتِ.

خامسًا: لتكُنْ موعظتُك لابنك شاملةً كلَّ جوانب حياتِه وآخرتِه، شاملةً عقيدتَه، وعبادتَه، وأخلاقَه كما جاء في وصيةِ لقمانَ لابنه.

سادسًا: خاطبْ عقلَ ابنِكَ، كما خاطبْتَ عاطفتَهُ، فبالعاطفةِ خاطبَ لقمانُ ابنَه، وذلك بقوله: ﴿ يَٰبُنَيَّ ﴾، وبالعقل خاطبهُ لـمّا علّلَ له بقوله: ﴿ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ﴾، فلا بُدَّ أن تُتيحَ له مساحةً كافيةً ليُفكّرَ ويقتنعَ بما تقولُه، فليس المرادُ التأثّرَ اللحظي، بل المراد غرس القيمِ والمبادئ.

بهذا نكون قد تواصلنا مع أبنائنا، وطوّرنا مهاراتِـنا من أجلِهم، وهذا ليس بقليلٍ في حقِّهم، فما أجملَ أن نزرعَ الثمارَ اليانعةَ حتى تعودَ علينا بالنفعِ إذا نضجت، ويا لها من فرحةٍ عارمةٍ تعلو الوجوهَ والقلوبَ بعودة الآباءِ إلى الأبناءِ.

الوصية الثانية

بِرُّ الوالدين(1)

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾

لنقف عند مناسبةِ ذكرِ هذهِ الوصيةِ من الله في أثناءِ موعظةِ لقمانَ لابنِه وإدماجِها فيها؛ ففيها تعظيمٌ لشأنِ الوالدينِ، ومناسبةٌ لاتصال حقِّ الوالدينِ بحقِّ الله تعالى، فكأنَّه قِيل: إذا رعيتَ يا لقمانُ، وكلُّ مَنْ ماثلَكَ حقَّ اللهِ في التوحيد؛ فالله عز وجلَّ قد رعى حقَّك أيها الوالدُ في هذه الوصية، وأمرَ الأولادَ ببِرِّك ورعايتِك، ومعرفةِ حقِّك.

يا لها من وصيةٍ مِنَ الله العظيم لكلِّ مولودٍ، إنَّها وصيةٌ بالوالدين، صاحبَيِ الحقِّ العظيم، جعل الله حقَّهما بعد حقِّه

في أكثر من موضع، فقال سبحانه: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ البقرة:٨٣، وقال تعالى: ﴿ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ النساء:٣٦، وقال جلّت قدرتُه: ﴿ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ الأنعام: ١٥١، وقال في موضعٍ آخرَ: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ الإسراء: ٢٣، أرأيت ذلك الارتباطَ العظيم بين حقِّ الله في التوحيد، وحقِّ الوالدين في الإحسان، في هذه الآياتِ المتتابعة، هل ظهر لك ذلك؟ ثمّ تأملْ -رعاكَ الله- لفظَ الوصيةِ، وكونها من الله، وقد تكررت في القرآن بهذا اللفظ أربع مراتٍ، ثمّ انظر ما فيها من دلالةِ العناية بشأنِ الموصَى به، ثم راجعْ نفسك، وقيِّم واقعَك مع والديكَ؛ وانظر -بعدها- إلى حجم الخللِ في هذه القضيةِ الجوهريةِ.

وفي مجيء لفظِ ﴿ ٱلْإِنسَٰنَ ﴾ في قوله جلّتْ قدرته: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ ﴾ دون (المؤمن) أو (المسلم) دلالةٌ على أنّ حقَّ الوالدين باقٍ ولو اختلفتِ الديانات، ويؤيِّدُ ذلك مجيءُ كلمةِ ﴿ ٱلْإِنسَٰنَ ﴾ بـ(أل) الدّالةِ على الجنس؛ ليشملَ كلَّ إنسانٍ، أيًّا كان جنسُه ودينُه وأصلُه ولغتُه، فيا لهُ من حقٍّ عظيمٍ!

عَنْ أَسماءَ بنتِ أَبِي بَكرٍ رضي الله عنها قَالت: قدمتْ عَلَيَّ أمي وَهيَ مُشرِكَةٌ، في عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَاسْتَفْتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ قُلْتُ: «إِنَّ أُمِّي قَدِمَتْ» وَهيَ رَاغِبَةٌ، أَفَأَصِلُ أُمِّي؟ قَالَ: «نَعَمْ صِلِي أُمَّكِ» [رواه الشيخان]، قال الخطابي: «فيه أن الرَّحمَ الكافرة تُوصَلُ من المال ونحوِه، كما تُوصَل المسلمةُ، ويُستنبط منه وجوبُ نفقةِ الأبِ الكافر والأم الكافرة، وإن كان الولد مسلماً»(١).

وجاء تحديدُ الموصَى به صريحًا ﴿بِوَالِدَيْهِ﴾؛ ليشملَ الأمَّ والأب جميعًا، فالوصيةُ كانت بهما جميعًا، ولا نجد في المقابلِ وصيةً للآباءِ بالأبناءِ على هذا النحوِ، لأنَّ اللهَ عطفَ قلوبَ الوالدينِ على الأولاد، ولا يُوجد مثلُ ذلك عند الأولاد، فكان لا بُدَّ من الوصية، وقد قيل: قلبي على ولدي انفطر، وقلبُ ولدي عليَّ حجر، وقد رُويَ أنّ لقمانَ لمّا أبلغَ ابنَهُ هذا الكلامَ، قال له: «إِنَّ اللهَ رَضِيَنِي لَكَ فَلَمْ يُوصِنِي بِكَ، وَلَمْ يَرْضَكَ لِي فَأَوْصَاكَ بِي»(٢).

وبعد هذا الإجمالِ من الوصيةِ بالوالدين جميعًا؛ جاء التفصيلُ، حيثُ أُفرِدتِ الأمُّ لعظيم حقِّها، وكبيرِ قدرِها، وضعفِ حالِها، وشدةِ مشقّتِها بقوله تعالى: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾، إنها الحالةُ التي تبيّنُ شدةَ

المشقةِ مع شدةِ الضعف، مع كمال العطاءِ من هذه الأمِّ العظيمةِ، في هذه الكلمةِ ﴿حَمَلَتْهُ﴾ إشارةٌ إلى أصلِ المشقة (الحَمْل) الذي هو مِن أظهرِ خصائصِ النساء، جعله الله في هذه الآية مَكْرُمةً للأمِّ، وسببًا للإشادة بقدْرِها، وعلوَّ كعبِها في التضحية والعطاء، على خلافِ ما يُروِّجُ له دعاةُ التحضُّرِ المزعومِ، من محاولاتٍ لتعديلِ هذا الخَلْقِ الرباني الخاصِ بالمرأة وجعلِه للرجلِ أيضًا، وما يتبعُ ذلك من مخالفةٍ للفطرةِ السويةِ.

إنّ ذِكْرَ الأمِّ هنا في قوله تعالى: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ﴾؛ يدلُّ على أنّ هذا الفضلَ خاصٌّ بها، ومتى تكونُ الأمُّ أمًّا؛ إلاّ في الزواج الشرعي المبارك، وإنّ ذكرَ لفظِ (الأم) يُبرز السمةَ التي يريد أن يطمسَها دعاةُ الحريةِ المزعومةِ، إنها سمةُ الأمومة، فنحن اليومَ لا نسمع إلاّ حقوقَ المرأة، حريةَ المرأة، عملَ المرأة، لكنْ مِن القليلِ أن نسمعَ الإشادةَ بالأمِّ والزوجة، بوصفِها أمًّا وزوجةً.

لقد بيّن اللهُ سمةَ هذا الحملِ وصفته، فقال سبحانه: ﴿وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾، والوهنُ هو الضعفُ، وقلّةُ الطاقة على تحمّلِ الشيءِ، وإنما جِيء بالمصدر ﴿وَهْنًا﴾؛ مبالغةً في ضَعْفِها، حتى لكأنها الوهنُ نفسُه!

ما أعظمَه من وصفٍ! وما أعجبَه من كشفٍ! لأنها إنما ضعُفَتْ حينما أعطتْ بعضَ ذاتِها لجنينِها، لأنه شاركَها في طاقتِها، وطعامِها، وحركتِها، حتى ضعُفتْ بسببه، والعجيبُ أنها فَرِحَةٌ بذلك، مسرورةٌ به، فسبحان من عطف قلبَها على جنينِها، وجعلها تفرحُ بآلامِها، وهل يمكنُ أن يتحققَ ذلك عبرَ اللقاءاتِ المحرّمة، والارتباطاتِ غيرِ الشرعيةِ بين الرجلِ والمرأةِ؟ كلا.

ولتأمل تراكُمَ هذا الوهنِ، وتزايدَهُ كما يُصوِّرُ ذلك قولُه تعالى: ﴿وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ﴾، إنه ليس وهنًا واحدًا، بل هو وهنٌ متعدّدٌ متزايدٌ مع مرور أيامِ الحمل، فلله درُّ هذه الأمِّ المعطيةِ الباذلةِ، وكم قصّرْنا في حقِّها وقدرِها!؟

وقد جاءت هذه الحال ﴿وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ﴾ كالتعليلِ لتلك الوصيةِ العظيمةِ، ذلك أنّ مثلَ هذه الحالةِ تشتركُ فيها كلُّ أمٍّ، فكانتِ الوصيةُ مُعلَّقَةً بأمرٍ عام، لا بشيءٍ خاصٍ قد يكون عند أمٍّ دون أخرى، فهل تنبَّهْتَ أيها المؤمنُ لهذا؟ ولو تأملَ الإنسانُ هذا الأمرَ، لوجدَ أنه الباعثُ في نفسِ الولدِ على أن يبُرَّ أمَّهُ، لأنه عطاءٌ وفضلٌ وتضحيةٌ، لا يستطيع إنكارَها، ولا التهرُّبَ منها.

ومع الحمل هنا عطاءٌ آخر، لكنه يأتي بعده، ألا وهو الإرضاعُ، وبينهما يكون الوضعُ والآلامُ، ويتضحُ ذلك من قوله تعالى: ﴿وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾، وهنا نجد عنايةً ببيانِ المدةِ (في عامين) أكثرَ من بيانِ الهيئةِ والحالِ، كما هو شأنُ الحمل، ذلك أنّ الإرضاعَ من حيثُ المدةُ أطولُ بكثيرٍ من الحمل، وهذه المدةُ الطويلةُ كلُّها تضحيةٌ وعطاءٌ مِن هذه الأمِّ الكريمةِ، ومن قَبلُ غذَتْك في أحشائِها، ومن بعدُ غذَتْك من أثدائِها، ثلاثون شهرًا وهي تعطيك من دمِها وطعامِها ونفسِها، قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَـٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَـٰلُهُۥ ثَلَـٰثُونَ شَهْرًا﴾ الأحقاف: ١٥.

وهكذا هي الأمُّ أعظمُ رمزٍ للعطاءِ والتضحيةِ، والعفوِ والصفحِ، والحبِّ والخيرِ، ولكنْ أين نحن من هذا كلِّه؟، هل عرفْنا قدرَها؟ شبابٌ على شاطئ البحر يشاهدون امرأةً مُسنّةً، تمسكُ في يدِها ورقةً، لما سألوها عند المساءِ عن حالِها، قالت: أحضرَني ولَدي منذ الصباح وقال إنه سيعود وأعطاني هذه الورقةَ، لم تأكلْ ولم تشربْ طيلةَ اليومِ، فنظر الشبابُ في الورقة التي تجمعُها في يدِها وإذا مكتوبٌ فيها: من يجدْ هذه العجوزَ يوصلْها إلى دارِ العَجزة، كانتِ الأمُّ تظنُّ أنه رقمُ جوالِ ولدِها الذي سيعود إليها، لذا أصرّتْ على البقاءِ وانتظارِ عودتِه، وقلقتْ عليه، واهتمّتْ من أجلِه، فساءت حالُها وارتفع

ضغطُها وفارقتِ الحياةَ، وهي تنتظر رجوعَ ابنِها، وهو في المقابلِ ينتظرُ فراقَها، فما أعظمَ الفرقَ بين القلبينِ!

معذرةً يا أماه، قدّمتِ لنا الحبَّ والوفاءَ، وقابلْناكِ بالغلظةِ والجفاء، فرشْتِ لنا الأرضَ تضحيةً وعطاءً، وجعلْنا حياتَك تكديرًا وبلاءً، نقابلُكِ بالإساءةِ وتقابلينا بالإحسان، نبادرُك بالعبوس وتبادرينا بالابتسامة، نبخلُ عليك وتحسنين إلينا، قلبُك لنا راحمٌ، وقلوبُنا عليك قاسيةٌ.

أماه إنْ ضيّعنا حقَّك فقد حفظه الله لك، ورفع قدْرَك، وسيمحو عطاؤُك وكرمُك جفاءَنا وغلظتَنا، لأنكِ أمٌّ وكفى.

وبعدَ هذا التوجيهِ الربانيِّ العظيم خُتمت هذه الآيةُ الكريمةُ بالأمرِ والشكر لله سبحانه ثمّ للوالدينِ فقالَ سبحانه: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾ يا لها من آيةٍ ما أعظمَ مدلولَهَا! إنها إرشادٌ إلى الأدبِ مع صاحب الفضلِ كيف نتعاملُ معه؟ إنها درسٌ للجاحدينَ المنكرينَ، إنها وصيةٌ للوفاءِ لمن له حقٌّ عليك في زمنٍ قلَّ فيه الوفاءُ.

الشكرُ أولًا لله الذي خلق تلك الأمَّ لك، ثم عطَفَ قلبَها عليك، ثم خلقك في بطنِها بهذه الصورةِ البديعةِ العجيبة، فاللّهم لك الحمدُ والشكرُ؛ أولًا وآخرًا، وظاهرًا وباطنًا.

كما لا تنسَ -أيها الإنسان- شكرَ والديكَ، اللَّذَيْنِ أحسَنا إليك؛ صغيرًا وكبيرًا، لكنَّ حالَك في الصغر أكثرُ دلالةٍ على حاجتِك إليهما، وعظم رعايتِهما لك، لهذا ذكره الله سبحانه في قوله: ﴿ رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾ الإسراء: ٢٤ .

ويُلاحَظ هنا كيف ذكر الشكرَ للوالدين جميعًا الأمّ والأب، وأُفردتِ الأمُّ في صدر هذه التوصيةِ، ولم يُذكَرْ معها الأبُ؛ وذلك لأنّ معاناةَ الأمّ في مراحلِ الحمل أمرٌ لا يَشرَكُها فيه أحدٌ، لا الأبُ ولا غيرُه، وإذا خرج الجنينُ إلى الحياة؛ كانتِ العنايةُ به من قِبَلِها أكثر، وكلُّ ما يمكن أن يُقدّمَه الأبُ لولده بعد ذلك يمكن للأمّ أن تشاركَه فيه، لكنّ الأبَ لا يمكن أن يشاركَ الأمّ في خصائص الحمل والوضع والإرضاع، لذا علا أمرُها في البـرّ والمكانة، وقال النبي ﷺ للرجل الذي قال له: مَنْ أَحَقُّ بحُسْن صحابتي؟ قَالَ: «أُمُّكَ»، قَالَ: ثُمّ مَنْ؟ قَالَ: «أُمُّكَ»، قَالَ: ثُمّ مَنْ؟ قَالَ: «أُمُّكَ»، قَالَ ثُمّ مَنْ؟ قَالَ: «ثُمّ أَبُوكَ» [رواه البخاري]، قال ابن حَجَر: قال ابنُ بطّال: «ومقتضاه أن يكونَ للأمّ ثلاثةُ أمثال ما للأب من البرّ... وذلك لصعوبة الحمل ثم الوضع ثم الرضاع، فهذه تنفرد بها الأمُّ وتشقى بها، ثم تُشارك الأب في التربية... فسوّى بينهما في الوصاية، وخصّ الأمّ بالأمور الثلاثة»[1].

فلا تغترَّ بالدُّنيا وما فيها فلا بُدَّ يومًا ترى ما أنت صانعُ، فاصنع البرَّ تلقَ عواقبه فلطالما عاد البرُّ للإنسان بالنفع، وإياكَ والعقوقَ وإن قُتِلتَ أو حُرِّقتَ، وإن قُدِّمَت لك المناصبُ والجواهرُ والدررُ.

أغـرى امـرؤٌ يومًـا غلامًـا جاهـلًا
بنقـوده كيـما ينـالَ بـه الـضررْ
قـال: ائتني بفـؤاد أمـك يا فتى
ولـكَ الدراهـمُ والجواهـرُ والدررْ
فمضى وأغمد خنجرًا في صدرها
والقلـب أخرجـه وعاد عـلى الأثر
لكنّـه مـن فـرط سرعتـه هـوى
فتدحـرجَ القلـبُ المعفّـرُ إذْ عثرْ
نـاداه قلـبُ الأمّ وهـو معفّـرٌ
ولدي حبيبي هلْ أصابكَ من ضررْ
فارتـد نحـو القلـب يغسـله بما
أجرت دموع العين من سـيل العبر
فاسـتلَّ خنجـرَه ليطعـنَ نفسـه
طعنًـا سـيبقى عـبرةً لمـن اعتبرْ
نـاداه قلـبُ الأمّ كُـفَّ يـدًا ولا
تطعـنْ فـؤادي مرّتـين عـلى الأثـرْ

يا الله ما أرحمَ قلبَ الأمّ! إنه عطوفٌ علينا على الرغم من قسوتنا؟ يَشعرُ بنا ولو تخلّينا عنه!

ما أعظمَك من قلبٍ محافظٍ على المودّة! وما أقبحَها من فعالٍ تقدمُ عليها مع آبائنا وأمهاتنا.

إنها دعوةٌ للتأمّل في هذه الوصية الربانية العظيمة، لنستفيدَ منها ولنعرفَ لوالدينا حقَّهُم، فقوا معاشرَ الأولاد مع ألفاظ هذه الوصية وأسرارها، وانظروا إلى حالكُم مع والديكُم، ومع أمهاتكم على وجه الخصوص، تذكّروا خيرَها، وفضلَها، وإحسانَها، وسهرَها، وعطاءَها، وحاولوا ردَّ بعض جميلها، ولو بكفّ الأذى عنها.

الوصية الثالثة

لا طاعة في معصية

﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾

لقد أوصانا الله بوالدينا، وخصّ الأم لحقّها العظيم، وفضلها العميم، وكرمها الغامر، وعطائها الظاهر، ثمّ أمر بشكره سبحانه وشكر الوالدين، اعترافًا بجميلهما، وردًّا لبعض معروفهما، ومع هذا الحقّ العظيم لهما، والوصية بشأنهما، إلا أنّ حقَّ الله أعظمُ، ودينَه أهمُّ، فإذا دارَ الأمرُ بين حقّ الله في التوحيد وحقّ الوالدين في البر؛ قُدِّمَ حقُّ الله على حقّ الوالدين، لهذا قال سبحانه: ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَا ﴾، يقول ابنُ كثيرٍ: «وإن حَرَصا عليك أن تتابعَهما على دينهما إذا كانا مشركين، فإيّاك وإيّاهما،

لا تطعْهما في ذلك، فإن مرجعكم إليّ يوم القيامة، فأجزيَك بإحسانك إليهما، وصبرك على دينك، وأحشرَك مع الصالحينَ لا في زمرة والديْك، وإن كنتَ أقربَ الناس إليهما في الدنيا، فإن المرءَ إنما يُحشَرُ يوم القيامة مع مَنْ أحب، أي: حبًّا دينيًّا»(١).

فقد يعمل الوالدان جاهدين على صرف ولدهما عن الحق، وقسره على الضلالة، وهنا يسقطُ برُّهما بالطاعة، ويبقى برّهما بالإحسان، وهذا وإن كان أمرًا نادرَ الحصول، لكنه إن حدث؛ فهذا حُكمُهُ، ولهذا قال سبحانه: ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ ﴾، فجاء بـ﴿ وَإِن ﴾ دون (وإذا)؛ لأنَّ مثل هذا الأمر غيرُ ثابتٍ وغيرُ مستقرٍ، بل هو أمرٌ طارئٌ مشكوكٌ في وقوعه، ذلك أنَّ الوالدين يحبّان الخيرَ لولدهما، وأيُّ خيرٍ أعظمُ من توحيد الله؟ والعيش في كنف الخالق سبحانه؟!

ثم تأملْ -رعاك الله- قولَه جلّت قدرتُه: ﴿ جَٰهَدَاكَ ﴾، أي بذلاَ جهدًا كبيرًا متواصلًا؛ لصدّك عن الحق، وحمْلك على الكفر، وهذا الأمرُ بهذه الصفة يندُر حدوثُهُ من الوالدين، وتقييد سقوطِ حقّهما في الطاعة بهذه الحالة النادرة؛ يدلُّ على بقاء حقّهما فيما دون ذلك، ومجيءُ التثنية في ﴿ جَٰهَدَاكَ ﴾ دليلٌ على أنّ الحكمَ واحدٌ في

الوالدين، فسواءٌ أحصلَ ذلك منهما جميعًا في وقتٍ واحدٍ، أمْ من واحدٍ منهما، فالحكمُ سواءٌ.

وقد حصل لسعد ابن أبي وقاص رضي الله عنه أمرٌ كهذا عند إسلامه، يوضِّح المعنى ويبيِّنُ المراد، فقد حلفت أمُّ سعدٍ أنْ لا تكلِّمَهُ أبدًا حتى يكفرَ بدينه، ولا تأكلَ ولا تشربَ، قالت: زعمْتَ أن الله وصَّاك بوالديْك، وأنا أمُّك وأنا آمرُك بهذا، قال: مكثَتْ ثلاثًا حتى غُشي عليها من الجهد، فقام ابنٌ لها يقال له عمارة فسقاها، فجعلت تدعو على سعدٍ، فأنزل الله عز وجل في القرآن هذه الآية ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ ﴾، ﴿ وَإِن جَـٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي ﴾ وفيها ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾. [رواه مسلم][1].

وكونُ المجاهدة على الشرك بالله ﴿ وَإِن جَـٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ فيه تعليلٌ لسقوط حقِّهما العظيم في الطاعة، وإلاَّ فالأصلُ بقاءُ حقِّهما، وحتى في هذه الحالة لم يسقطْ إلا حقُّ الطاعة، لا حقُّ البرِّ والإحسان، ذلك أنهما أمَرَا بما يخالفُ أمرَ الله، ومَن هذا شأنُه؛ لا يُطاع، قال ﷺ: «لاَ طَاعَةَ في مَعْصِيَةٍ، إنَّمَا الطَّاعَةُ في المَعْرُوف» [رواه البخاري].

ولنتأملْ قولَهُ تعالى: ﴿فَلَا تُطِعْهُمَا﴾، كيف قصرَ ذلك على عدم الطاعة، ولم يقل سبحانه: (فلا تبرّهما)، بيانًا لعظم حقّهما ولو أمرَا ولدَهما بهذا الجرم العظيم، فالأمرُ يتعلّقُ بأساس الدّين وأصله، ومع هذا أَمَرَ سبحانه بعدم طاعتهما فحسب، ولم يأمر سبحانه بعدم برّهما، ولم يأمر بإيذائهما، لما لهما من الحقّ العظيم.

وحتى لا يُفهمَ من عدم طاعتهما جوازُ إلحاق الأذى بهما، أو جوازُ التقصير في برّهما؛ قال سبحانه بعد ذلك مباشرةً: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾.

فالله يأمرنا أمرًا بأن نُصاحبَ والدِينا بالمعروف؛ ولو صدر منهم مثلُ هذا الأمر العظيم، فكيف يكون الحالُ إذًا إذا كان الوالدان مؤمنين، يأمران بالخير ويدعوان إليه!.

وتقييد ذلك بالدنيا ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾؛ لأنهما كافران كما يظهر من السياق، فلن يكون لهم لقاءٌ مع ولدهما في الآخرة، وهذا المعنى الجميلُ المتمثلُ في الوصية بصحبتهما في الدنيا بالمعروف، مع اختلاف الديانة، وإصرارهما على صرف ولدهما عن الحقّ؛ يكشف عوار الحضارات المادية اليومَ، التي تُفردُ للأم يومًا واحدًا في العام كلّه، قد يَسألُ فيه الأولادُ عن أمّهم، وقد لا يَسألون، ثم بعد ذلك لا تواصلٌ ولا اتصالٌ! خصّصوا لها يومًا في السنة

هو الواحد والعشرون من شهر مارس كي يحتفوا بها ويزوروها ويقدموا لها الهدايا، ففي هذا اليوم يذهبُ الأبناءُ في بلاد الغرب إلى مكان أمّهمْ، سواءٌ أكان بدار المسنّينَ والعجزة، أمْ بالبيت المهجور الذي تربّوا فيه صغارًا، حاملين وردةً بيضاءَ أو هديةً تافهةً مع ابتسامة نفاقٍ، ويجلسون مع أمّهم متواضعين ومبتسمين حسبَ الأعراف، وفي كلّ دقيقةٍ ينظرون إلى الساعة، يستعجلون الوقت، ليتركوها وينصرفوا إلى ما كانوا عليه من القطيعة والعقوق، انتظارًا للسنة القادمة، وعندما سُئلتْ بعضُ الأمهات المسجونات في تلك الدور عن أمنيتهنّ، كلُّهُنّ أجبْنَ بكلمةٍ واحدةٍ (الموت).

فهل تأمل الإنسان هذه العظمةَ في دِيننا؟ ورأى كيف تُصانُ حقوقُ الضعفة والمسنّينَ، وأصحاب الفضل لَدينا، حتى مع اختلاف الديانة؟ يبقى حقُّ الصلة والبـرّ والنفقة، وفي تلك الحضارة البائسة تُسحَقُ كلُّ الحقوق لِمَنْ كان ضعيفًا لا يُستفادُ منه حسب ظنّهم، يقول ابنُ القيم: «والذي يقوم عليه الدليلُ وجوبُ الإنفاق وإن اختلفَ الدينان، لقوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾، وليس من الإحسان ولا من المعروف تركُ أبيه وأمّه في

غاية الضرورة والفاقة وهو في غاية الغنى، وقد ذمَّ الله تباركَ وتعالى قاطعي الرّحم وعظّمَ قطيعتها، وأوجبَ حقَّها وإنْ كانت كافرةً، قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ النساء: ١ ، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ﴾ الرعد: ٢٥، وفي الحديث: «لا يدخلُ الجنةَ قاطعُ رحمٍ»، «والرّحمُ معلّقةٌ بساق العرش تقول: يا ربّ، صِلْ من وصلَني، واقطعْ مَنْ قطعَني»، وليس من صلة الرحم تركُ القرابة تهلكُ جوعًا وعطشًا وعُريًا، وقريبُهُ من أعظم الناس مالًا، وصلةُ الرحم واجبةٌ، وإنْ كانت لكافرٍ؛ فله دينُهُ وللواصل دينُهُ»[1].

هذا هو دينُنا العظيمُ، وهذه تعاليمُهُ، في هولندا يناقشون هذه الأيامَ فكرةَ الموت الرحيم، أيْ: السماحُ للمسنّينَ بالانتحار عن طريق حقنةٍ خاصّةٍ، وقد سجّلتْ هولندا في العام الماضي (٢٠٠٩م) ٢٥٠٠ حالة من هذا النوع، بزيادة ١٠٪ عمّا سبق.

هذه هي تعاليمُ حضارتهم، وهذه هي تعاليمُ ديننا، فهل أدركْنا ذلك، وشعرْنا بالعزة لانتمائنا لهذا الدين العظيم.

ومن خلال ما سبق ظهر لنا ذلك التوازنُ العظيمُ في التعامل مع الوالدين عمومًا، وكيفيةُ التصرّف معهما في تلك الحالة الخاصّة المسقطة لحقّهما في الطاعة، ولو تأمّلنا التوجيهَ الربانيَّ بعدها؛ لوجدْنا نهيًا وأمرين، فأمّا النهيُ فهو ﴿فَلَا تُطِعْهُمَا﴾، وأما الأمران فهما: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾، وبهذا يحصلُ التوازنُ ورعايةُ الحقوق، فالمطلوبُ هو صحبتُهما بالمعروف، وأمّا الإتباع فليس لهما؛ بل لمن ينفعُ الإنسانَ في دينه، فهو من جهةٍ يصحب والديه ليقومَ بحقّهما ولو كانا كافرين، ويحافظ على دينه بمخالطة المؤمنين المتقين، المنيبين إلى الله من جهةٍ أخرى، كما قال سبحانه: ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ للوالدين الصحبةُ، ولدين الله الإتباعُ، وبهذا التوازن العظيم تستقيمُ الحياةُ، ويهنأُ الإنسانُ، ويسيرُ على هدىً ونورٍ.

ثم خُتمتْ الآيةُ بما يُشعرُ بالوعيد والتذكير بالمصير في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، فمن يؤمن بعودةٍ وبعثٍ ورجوعٍ إلى العليم الخبير، فلن يضيّعَ تلك الحقوقَ،

ولن يخبط في الأرض بغير هدىً، ومن آمنَ بأنَّ أعماله محصورةٌ، وأنَّ صحيفتَهُ منشورةٌ كما قال سبحانه: ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فسيحرص في هذه الدنيا على أداء الحقوق وعمل الصالحات، والبعد عن المنكرات.

إنها توجيهاتٌ ربانيةٌ، ونفحاتٌ علويةٌ، تحتاج قلوبًا حيةً، وأنفسًا زكيةً، كي تجعلَها واقعًا ملموسًا، وأمرًا محسوسًا.

الوصية الرابعة

رقابة الله

﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ﴾

يبدأ هذا المقطعُ من تلك الموعظة الإيمانية التربوية بتكرير ذلك النداء اللطيف ﴿ يَٰبُنَيَّ ﴾، المنبئ عن المحبة، المقرِّب للقلوب، المُشعر بالرأفة، مع ما فيه -زيادةً على ذلك- من التنبيه لأهمية ما بعدَهُ.

في هذا الجزء من الوصية يَلفتُ لقمانُ نظرَ ابنه لأمرٍ عظيم، يربّي فيه حياةَ القلب، ورقابةَ الضمير، ولم يقل هو صغيرٌ لا يدركُ هذه المعاني، كلاّ، بل ربّاه من أول الأمر على رقابة الله، وعرّفه بربّه الذي لا تخفى عليه خافيةٌ، ولو كانت حبّةً صغيرةً في هذا الملكوت العظيم.

إنّ مثلَ هذا التوجيه ليُوجدُ رقابةً داخليةً؛ تكوّنُ -بإذن الله- رادعًا ذاتيًا عن الانحراف والزلل، ومن كان يظنُّ أنّ رقابةَ الوالدين ليلًا ونهارًا هي التي ستضمنُ صلاحَهما؛ فهو مخطئٌ، هذه المتابعةُ مهمّةٌ؛ لكن يبقى القلبُ والضميرُ، فماذا قدّمْتَ لهما أيها الأبُ؟ بماذا ربطتَ ولدَك؟ بالخوف منك، أم بالخوف من الخالق؟ ولدُك يراقبُكَ أم يراقبُ الله؟

الفرقُ كبيرٌ، فمن راقبَ الخلقَ فعلَ الأفاعيلَ إذا غابَ عنهم، ومن يراقب الله يخشَ الله في كلّ مكانٍ، لمّا خلا رجلٌ بامرأةٍ -كما في حديث أصحاب الغار- ما الذي منعَهُ ومنعَها من الوقوع في الفاحشة إلاّ رقابةُ الله؟! قال في الحديث: «كانت لي ابنةُ عمٍّ، هي أحبُّ الناس إليّ، فراودتُها عن نفسها فامتنعتْ منّي حتى ألّمت بها سنةٌ من السنين، فجاءتني فأعطيتُها عشرين ومائةَ دينارٍ على أن تُخلّي بيني وبين نفسها، ففعلت، حتى إذا قَدرتُ عليها قالت: اتق الله، لا أُحلُّ لك، ولا تفضّ الخاتمَ إلا بحقّه، فتحرجتُ من الوقوع عليها، فانصرفتُ عنها وهي أحبُّ الناس إليّ، وتركتُ الذهب الذي أعطيتُها» [رواه البخاري].

يا ترى ما الذي نبه قلبَ هذه المرأة، وما الذي ردع ذلك الرجلَ؛ إلاّ رقابةُ الله، وتعظيمُ الله؟

تأمّلْ إلى مريمَ عندما جاءَها جبريلُ في صورة رجلٍ سويٍّ جميل الخلق ﴿قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ مريم: ١٨.

تَذكّرْ كلَّ هذا وأنت تستعرض تلك الكلمات العظيمة التي يعظُ بها لقمانُ ابنَهُ فيقول: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ أي: أنّ الخطيئةَ والذنبَ، أو أيَّ شيءٍ يَدِقُّ ويصغرُ، ويظنُّ الإنسانُ أنه يخفى، إنه لو كان بمقدار الخردلة وهي ذلك الجزءُ الصغير، لو كان في صخرةٍ، أي: في جوفها أو وسطها أو شقوقها، فإن الله يعلمُه ويحيطُ به.

فذكرَ حبةَ الخردل وهي من أدقّ الكائنات وأصغرها، وكونها في الصخور التي هي من أصلب الأشياء وأعزها وأقصاها، وأوسعها انتشارًا وتنوّعًا، ومع هذا يعلمُها الله، فَعُلمَ من ذلك أنّ علْمَ غيرها مما هو أظهرُ منها من باب أولى.

فما أعظم علمَ الله! وما أجلّ قدرةَ الله! وما أجهلَ الإنسانَ! وما أقصرَ نظرَه!

قال تعالى: ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ الأنعام: ٥٩ .

فكيف بعد هذا نجعل نظرَ الناس أعظمَ من نظر الله؛ فنخشاهم ولا نخشاه، ونستحيي منهم، ولا نستحيي منه سبحانه، قال بعضُ السلف: لا تنظر إلى صغر المعصية، ولكنْ انظر إلى عظمة مَن عصيتَ، وقيل أيضًا: لا تجعل الله أهون الناظرين إليك!

ذهب الشبابُ فما له من عودةٍ
وأتى المشيبُ فأين منه المهربُ؟
دعْ عنكَ ما قد فاتَ في زمن الصِّبا
واذكرْ ذنوبَكَ وابكها يا مذنبُ
واذكرْ مناقشةَ الحساب فإنَّهُ
لا بُدَّ يُحصى ما جنيتَ ويُكتَبُ
لم ينسَهُ الملكان حينَ نسيتَهُ
بل أثبتاهُ وأنتَ لاهٍ تلعبُ

والـروحُ منـكَ وديعـةٌ أُودِعْتَهـا
ستردُّها بالرَّغـم منَك وتُسـلَبُ
وغـرورُ دنيـاكَ التـي تسـعى لهـا
دارٌ حقيقتُهـا متـاعٌ يذهـبُ
والليـل فاعلـمْ والنهـار كلاهمـا
أنفاسُـنا فيهـا تُعـدُّ وتُحسَـبُ

ما أجمل هذه المعانيَ وهي تُغرس في قلوب الناشئة! ليقْدروا الله حقَّ قدْره، ولنتأملْ طريقة غرسها كيف جاءت بلفت النظر إلى ملكوت الله، إلى أمرٍ ملموسٍ، يُرى ويُشاهَد، فهل نحن فعلنا ذلك، واستثمرنا نُزْهاتنا، وذهابَنا وإيابَنا للَفْت أنظار أولادنا لعظم ملكوت الله، وقوّته وقهره وقدرته سبحانه، من خلال تلك الجبال الشاهقة، والأودية السحيقة، والنباتات الزاهية، والأراضي الشاسعة، يا له من مجالٍ ما أوسعَهُ لو تنبّهْنا إليه! ويا له من رافدٍ إيمانيٍّ ما أعظمَه لو فكّرْنا فيه! إنّ المعلومات لا تَنقصُنا؛ لكنْ ينقصُنا ما يقع في القلب من تعظيم العظيم سبحانه، وإجلاله وقدْره حقَّ قدْره.

هذه امرأة خلا بها رجلٌ ذاتَ ليلةٍ، ورآها متوجسةً خائفةً، فقال لها: ممَّ تخافين؟ لا يوجد أحدٌ غيرُنا، إلا هذه الكواكبَ؟ فقالت وهي ذاتُ القلب الحي، الذي تحرّك لما رأى عظمةَ الله وبديعَ صنعه: وأين مُكوكِبُها؟ فتنبّه الرجلُ وتركَها وذهب، والأخرى التي قيل لها: قد أُغلقت الأبوابُ، فقالت: وبابُ الله؟ ففزع الرجل وتركها.

هذه التربيةُ القلبيةُ التي نحتاجُ أنْ نركّزَ عليها مع أولادنا، لأنها الباقيةُ، كثيرٌ من المربينَ يعتني بالظاهر والسلوك المعلَن، لكنّ تربيةَ القلوب لا تعنيه، أو لا يهتمُّ بها، انتبهوا إلى عناية لقمانَ بهذا الأمر، حيثُ قدّمه على السلوك الظاهري لأنه الأهمُّ ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ ﴾، تأمل هذا الترقّيَ في التعظيم، وفي الإجلال، فإذا كان هذا الصغيرُ يدرك شيئًا عن الصخرة لأنها قريبةٌ منه، مألوفةٌ لديه، ويعلم عن قدرة الله بشأنها ما علم، فماذا تكون حالُهُ عندما يتسعُ مجالُ ذلك العلم حتى يشملَ تلك السموات العظيمةَ، والأرضَ الشاسعةَ الواسعةَ، إنه بلا شكٍّ سَيَعْظُم عنده قدرُ ربّه، الذي أحاط بكلّ ذلك.

تأمل كيف تأخر ذِكرُ فاعل ذلك كلّه وهو الله؛ إلى آخر الجملة ﴿يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾، ليكونَ ذلك أكثرَ تشويقًا لمعرفة مَنْ هذه صفاتُه، إنه عندما يسمع أول الآية ﴿إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ ثم يتعاظم الأمر ليكونَ في الصخرة، ثم السموات والأرض؛ عندها يتساءلُ: ما شأنُها؟ فيأتي الجواب: ﴿يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾، وهنا يستقرُّ تعظيمُ الله في القلب، وإذا حصل ذلك؛ حصلت المراقبةُ وكانت الاستقامة، فإنّ مَن يتيقّنُ هذا الأمر، يتيقّن أيضًا أنّ كلّ أعماله محصورةٌ، معدودةٌ، محصاةٌ، كما قال سبحانه: ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ المجادلة:٦ فكُنْ مع خالقكَ العظيم من خلال هذا اليقين، وتذكّرْ قولَهُ تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ الأنبياء: ٤٧.

يا له مِن معنىً ما أعظمَه وما أجلّه! وما أغفلَنا عنه! وما أكثرَ شواهدَه حولَنا! لكننا نُصمُّ آذانَنا، ونغمضُ عيونَنا فلا نسمعُهُ ولا نراه، فاجعلْ هذا الكون العظيمَ واعظًا للقلب، مذكّرًا لك بربّك، فبهذا يحيا القلبُ، وتسعد النفسُ.

وقد خُتمت هذه الآيةُ باسمين من أسماء الله الحسنى، هما: اللطيفُ الخبيرُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ وما أحوجَنا أن نفهمَ معانيَ هذه الأسماء! وأن نتعبّدَ اللهَ بها، فإذا مرّ علينا -ونحن نقرأُ كلامَ الله- اسمٌ من أسمائه تعالى؛ فلنقفْ عندَهُ، ولنتأملْ فيه، ولنعرضْ حياتَنا وأعمالَنا عليه، عندها يعرف كلٌّ منّا أين هو؟ وما شأنُهُ؟ تأمل هنا كيف خُتمتْ هذه الموعظةُ الكونيةُ بهذين الاسمين: اللطيف الخبير، وانظرْ تناسبَهما مع الحدث الخفيّ اللطيف، فسبحان مَن هذا شأنه ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ الأنعام: ١٠٣، واللطيف: هو الذي لطُفَ صنعُه ودقّ، حتى عجزت عنه الأفهامُ، والخبيرُ هو الذي انتهى علمُه إلى الإحاطة بمواطن الأشياء وخفاياها، كما أحاط بظواهرها، فتعالى ربُّنا وجلّ، ما أعظم صفاته! وما أجهلَنا وما أغفلَنا! ربُّنا يسمع أقوالَنا ونجوانا، ويرى أفعالَنا، ونحن نظنُّ أننا استترْنا عن العيون، ما أجهلَ الإنسانَ! ما أغفلَ الإنسان! ما أضعفَ الإنسان! ما أكفرَ الإنسان!

تقول عائشة ﵂: سبحان الذي وسع سمعُه الأصوات، والله لقد جاءت المجادلةُ تشتكي زوجَها إلى رسول الله ﷺ، وأنا في جنب البيت، وإنَّه ليخفى عليَّ بعضُ كلامها -ما بينهما إلاّ جدارٌ- والله عزَّ وجلَّ يسمعُها من فوق سبع سمواتٍ ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ المجادلة:١.

فرَبِّ نفسَك وولدَك على هذه المعاني العظيمة، وانظر إلى طريقة لقمانَ في وعظه لابنه، وكيف اهتمَّ لهذا الأمر وعظَّم شأنَه، حيثُ أكدَه لولده بمؤكداتٍ عدة، هي: النداء بـ(يا بني)، و(إن)، وضمير الشأن (إنها)، كلُّ ذلك لعظم الأمر وخطره، فهل فعلتَ ذلك؟

ابدأ بلفت نظر ولدكَ لملكوت الله وسعة ملكه، وقدرته وحكمته، ذكّره بمثل قوله تعالى: ﴿وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ الملك:١٣- ١٤، ذكر ابنُ القيم في روضة المحبينَ أنّ رجلًا دخل غيضةً فقال: لو خلوْتُ هنا بمعصيةٍ مَن كان يراني؟ فسمع صوتًا، ملأَ ما بين لابتي الغيضة

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ وقال بعض السلف: مَن كان له واعظٌ من قلبه زادَه الله عزًّا(1).

وإذا خلوتَ بريبةٍ في ظُلمةٍ
والنفسُ داعيةٌ إلى الطُّغيان
فاستحي من نظر الإله وقلْ لها
إنَّ الذي خلقَ الظلامَ يراني

الوصية الخامسة

الصلاة

﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴾

ويتكرر هنا النداءُ اللطيفُ ﴿ يَٰبُنَيَّ ﴾؛ لأن المأمور به أمرٌ مهمٌّ عظيمٌ، جليلُ الخطر، يحتاج إلى تنبه واستحضار ذهن، إنَّه يأمره بالصلاة، بل بإقامتها، ويأمره بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويأمره بالصبر على ما أصابه.

ولو تأمّلنا هذه الثلاثة؛ لوجدنا فيها حقًا لله وهو الصلاة، وهو يتناسب مع مقدمة الوصية المشعرة بتعظيم الله وإجلاله، وكأنّه أظهرَ صورةً لذلك هي الصلاة، وحقًا للناس بنفعهم ودلالتهم على الخير، وإبعادهم عن الشر، وهو حقٌّ عامٌّ جاء بعد حقّ الوالدين الخاص، وحقٌّ للنفس وهو الصبر، وهو السلاح القوي لتحقيق هذه الفضائل.

ثم إن هذه الثلاثة يجمعها أمرٌ آخرُ هو المشقةُ، لذا كان الصبر عليها من عزم الأمور، والأب لا بد له من الاعتناء بتربية هذا الأمر في ولده، كما أنّ هذه الأمور تُعدّ من أصول الأعمال الصالحة، وقد جاءت بعد تعليمه أصول العقيدة، فتأمل هذا النظام في التربية، واستحضره عند توجيه ولدك.

فالصلاةُ التي جاءت أولًا فيها تكليفٌ ومشقةٌ، تعود إلى تكررها مع تطاول الزمن، فمن يصبر على ذلك؟ كما أنها تأتي في أوقاتٍ قد يميل فيها الإنسانُ للراحة، وعندها كيف يواجه لذةَ الراحة في سبيل القيام بالواجب.

والمطلوب هو الاستجابة لنداء الله بالصلاة والمداومة على ذلك، ولهذا شُرع لنا عندما نسمع النداء للصلاة أن نُردّدَ مع المؤذن، ونقولَ كما يقول إلا في «حيّ على الصلاة، وَحيَّ على الفلاح»، وهي الدعوةُ الصريحةُ للصلاة أن نقولَ: «لا حولَ ولا قوةَ إلا بالله»، وسرُّ ذلك أنها تكليفٌ ومشقةٌ، فنحتاج فيها إلى عون ربّنا، فنحن نتبرأ من حولنا وقوتنا، ونُوكلُ الأمر إليه سبحانه، ليمدّنا بالعون في ذلك.

يقول شيخُ الإسلام ابنُ تيميةَ: «وقول: (لا حولَ ولا قوّة إلاّ بالله) يوجب الإعانة، ولهذا سنّها النبي ﷺ إذا قال: المؤذن حيّ على الصلاة؛ فيقول المجيبُ: لا حولَ ولا قوّة إلاّ بالله فإذا قال: حيَّ على

الفلاح، قال المجيب: لا حولَ ولا قوّةَ إلا بالله»[1].

ويقول الطيبي: «معنى الحيعلتين: هلُمّ بوجهك وسريرتك إلى الهدى عاجلًا، والفوز بالنعيم آجلًا، فناسب أن يقول: هذا أمرٌ عظيمٌ لا أستطيع مع ضعفي القيامَ إلا إذا وفّقني الله بحوله وقوته»[2].

ويقول الشيخ عطية سالم: «والعلماء يقولون في معنى الحوقلة: لا حول عن معصية، ولا قدرة على طاعة إلا بالله، وهذا عين التوحيد؛ لأن الإنسان ضعيف بالنسبة للمعصية، فالنفس والهوى والشيطان وميول الرغبات كل ذلك عوامل تدعوه إلى المعصية، فكيف يصد هذه العوامل المجتمعة إلا بالله ﷻ، وكذلك فعل الطاعة لا تقدر عليها إلا بالله»[3].

ومثلُ هذا المعنى الجليل لا بد أن يُدركَه المؤمنُ ويشعرُ به، بل وينبغي أن يتربّى عليه الناشئة، حتى يستعينوا به على هذا التكليف العظيم، بدل التشكّي والتذمّر من هذه الشعيرة العظيمة.

وإنّما بدأ لقمانُ بالصلاة لأنها عمادُ الأعمال الصالحة، قال ﷺ: «رأسُ الأمر الإسلامُ وعمودُهُ الصلاةُ وذروةُ سنامه الجهادُ...» [رواه ابنُ ماجه، وصحّحه الألبانيُّ]، وأيضًا لاشتمالها على الخضوع الكامل

لله، والانقياد والتسليم له سبحانه، ولشمولها يومَ الإنسان وليلتَه، ومن ثُمّ عمرَه وحياتَه، فبدأ بأكثر الأعمال التصاقًا به، وتكررًا عليه؛ ليألفها ويتعوّدَ عليها، ويَسْهُلَ عليه أداؤها، ولأنها تربطه بخالقه دائمًا.

وإنما أمر بإقامة الصلاة لا بالصلاة ذاتها، حيثُ قال له: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، ولم يقل له: (صلِّ)؛ لأن إقامة الصلاة تعني إدامتَها، والمحافظةَ عليها في أوقاتها، كما تعني القيامَ بها على الوجه الأكمل في أركانها وواجباتها وسننها، فهو هنا يدعو للكمال فيها زمانًا وصفةً، ولأنّ هذا هو الذي تُقبل به الصلاةُ، فليس المراد مجردَ الحركات والصور.

ولهذا المعنى الجليل نجد أنّ كلَّ الأوامر المتعلقة بالدعوة إلى الصلاة في القرآن جاءت بهذه الصيغة (إقامة الصلاة)، ولهذا لم يقبل الله من المنافقين صورةَ الصلاة؛ لأنها فقدت روحَها، وهو الإخلاصُ لله سبحانه، واستشعارُ عظمته -جلّت قدرتُه-، فلامَهُمُ اللهُ وقال عنهم: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ النساء: ١٤٢، وفي المقابل قال تعالى عن المؤمنين: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ المؤمنون: ١ - ٢.

والصلاةُ مِن أعظم أسباب الراحة، فإذا اهتمَّ القلب، وانشغلت النفسُ، واضطرب الفؤاد، فافزع إلى الصلاة، وتذكرْ قولَ حبيبك المصطفى ﷺ عن هذه الصلاة: «يا بلال أقم الصلاة، أرحنا بها» [رواه أبو داود، وصححه الألباني]، وكان الصحابة ﷺ يقولون: «كان النبيُّ ﷺ إذا حزبَهُ أمرٌ فزع إلى الصلاة»[1]، فإذا تربّى الابن على هذه المعاني؛ أدرَكَ أهميةَ الصلاة، وحافظَ عليها من تلقاء نفسه.

ومع كل ما سبق فكثير من الآباء يشتكون من عدم اهتمام أبنائهم بالصلاة، وتهاونهم بها خاصةً بعدما كبروا، وهذا أمرٌ مشاهدٌ ومقلقٌ لكثيرٍ من الآباء، وسنحاول هنا ذكرَ بعض الخطوات العملية لمعالجة هذا الأمر:

أولًا: عليك أنْ تتحلَّ بالصبر، لأن مثلَ هذا المطلب يحتاج إلى نَفَسٍ طويلٍ ليتحقق، فلا تستعجل الثمرةَ، وتذكّرْ قولَهُ تعالى لنبيه محمدٍ ﷺ: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ طه: ١٣٢، وانظر كيف قال سبحانه (واصطبرْ) ولم يقُلْ و(اصبرْ) لعظم المشقّة، وضخامة الجهد، فلا يخالجُ نفسَك يأسٌ ولا قنوطٌ.

ثانيًا: الاهتمام بمرحلة التقليد عندَ أولادكَ، وهم في سنّ الطفولة المبكرة مابين الثالثة والسادسة، وإيَّاك أنْ تتهاهم عن الوقوف بجانبك في الصلاة أو تقليدك، فهذا من أهمّ أسباب غرس حبّ الصلاة في نفوسهمْ، لهذا على الوالد أن يصلي النوافلَ أمامَ أولاده في مكانٍ ظاهرٍ من البيت ليعوّدَهُمْ على هذه الشعيرة، فالعلمُ في الصغر كالنقش في الحجر، فقد ورد عن الحسن البصريّ قولُه: «قدّموا إلينا صبيانكُمْ فإنّهم أفرغُ قلبًا وأحفظُ لِما سمعوا».

ثالثًا: الحثُّ والتشجيعُ والمكافأةُ للأطفال على الصلاة وهم في سنّ السابعة إلى العاشرة، والصدق معهم في ذلك، قال ﷺ: «مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناءُ سبعٍ، واضربوهم عليها وهم أبناءُ عشرٍ، وفرّقوا بينَهُم في المضاجع» [رواه أبو داود، وقال: حسنٌ صحيحٌ].

رابعًا: الاهتمامُ الدائمُ بأمر الصلاة مما يرسّخُ قيمتَها وفضلَها وقدرَها في قلوب الأولاد، ومن ذلك المتابعةُ للأولاد في أدائها، والسؤالُ عن ذلك ولو كان الوالدُ مسافرًا، ويقبلُ منهم ردّهم، لأنّ المراد هنا إشعارُهم بأهمية الصلاة، ومن ذلك أيضًا ربطُ كلّ المواعيد بالصلاة، ليكونَ الحديثُ دائمًا حولَها، ومن ذلك اصطحابُهم للمسجد مع تعليمهم آدابَه، وجعلهم بجانبك حتى لا يعبثوا بالمسجد ويؤذوا المصلينَ.

خامسًا: القدوةُ الحسنةُ، فإذا رأى ولمس الأولادُ اهتمامَ الوالدين بالصلاة انتقلَ ذلك إليهم ولو بعدَ حينٍ، فلا بُدَّ أن يشعُرَ الأولادُ بقيمة الصلاة عند الأبوين، وذلك بقطع الأعمال عند حضورها، والإسراع إلى أدائها، وكذلك التجهّزُ لها، وقضاؤُها عندَ فواتها.

سادسًا: استثمرْ الأحداثَ في غرس قيمة الصلاة، فإذا مرضَ أحدُ الأولاد، فعلّمْه كيف يؤدّي الصلاة حسبَ استطاعته، وبيّنْ له حاجتَه لربّه ليشفيَهُ من مرضه، وإذا سافرتَ مع أولادك علّمْهُم صلاةَ السفر وأحكامَها، واجعل أحد أبنائك يؤذّنُ والآخرَ يؤم، وهكذا تجدُ أنَّ الصلاة حاضرةٌ معك كلَّ حينٍ.

سابعًا: تذكرْ أنك إن فعلتَ كلَّ ما سبق وصبرتَ عليه، وأوليتَه عنايتَك، فقد مهّدتَ لمرحلة البلوغ، التي يُحاسَب فيها ولدُك على الصلاة، وإذا بلغ ابنُك ذلك، فعليك بالجلوس معه ووعظه برفقٍ في غير أوقات الغضب كما رأيت في طريقة لقمانَ مع ابنه، وعلّمه أنه محاسبٌ وأنه مسؤولٌ عن تصرفاته، فذلك خيرٌ من مراقبته الدائمة التي لن تثمرَ كما تريد، ذكّره دائمًا بأسلوبٍ لا يَشعُرُ معه بالإهانة، ولا بالتحدي، ولا بالمراقبة، وأشعرْه بالمحبة والتقدير، بهذا تُكسبُه وتؤثّرُ فيه، واعلمْ أنّ المعوّلَ عليه هو المراحلُ السابقةُ، فمن السابعة إلى سنّ

التكليف يكون ولذلك قد صلّى ما يقاربُ خمسةَ عشرَ ألفَ صلاةٍ، وهذا رقمٌ كبيرٌ كما ترى يصعب على من تعوّدَ على عملٍ فيه أن يتركَه، فابدأْ ولا تيأسْ واعملْ ما تقدرُ عليه، ولا تنسَ الدعاءَ الدائم بصلاح أولادك فللك دعوةٌ مستجابةٌ؛ وإذا لم يحصلْ ما تريدُهُ تذكرْ قولَه تعالى لنبيه ﷺ: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ القصص: ٥٦، نحن وإنْ كنّا نشتكي من هجران المساجد وعدم اكتراث الشباب بالصلاة، إلا أننا يجب أن نشيد بما نراه من مظاهر طيبة من اهتمامٍ من الشباب بالصلاة في صورة لم تكن معهودة من قبل، فتراهم يؤدون الصلاة عند الملاعب جماعةً، وعلى الطرقات وأثناءَ السفر، وفي البَرّ وعندَ البحر، كلُّ ذلك دون رقابةٍ أو حثٍّ مباشر، وهذا هو المكسبُ الحقيقي، وهذا بعض أثرِ حسنٍ لتربيةٍ طويلةٍ في بيوتنا ومدارسنا على هذا الشعيرة.

الوصية السادسة

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴾

بعد أنْ أَمرَ لقمان ابنه بإقامة الصلاة التي هي عمودُ الدين، أمرَه بالقيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الذي هو سفينةُ النجاة بإذن الله، فقال: ﴿وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ والأمرُ بالمعروف والنهيُ عن المنكر شعيرةٌ عظيمةٌ، بها نالتْ هذه الأمةُ الخيريةَ على الأمم، قال تعالى: ﴿ كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ آل عمران: ١١٠، ومِنْ عِظَم شأنها والاهتمام بأمرها؛ قُدِّمَتْ في الذكر في هذا الموطن على الإيمان، الذي هو أساسُ الدين.

والأمرُ بالمعروف والنهيُ عن المنكر سمةٌ تدلُّ على فاعلية هذه الأمة، وأنها دومًا تسعى للإصلاح والخير، فهي ليستْ أمّةً سلبيةً ترى الخطأَ وتسكتُ عنه، وأيُّ أمّةٍ تتغاضى عن الأخطاء، وتستسلمُ للانحرافات؛ ستضعُفُ وتذهبُ ريحُها، لهذا جعل الله ﷻ هذه الشعيرةَ من أسباب نصره -جلّت قدرتُه- فقال سبحانه: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ۝٤١﴾ الحج: ٤٠ - ٤١ .

الأمرُ بالمعروف والنهيُ عن المنكر ليس مجردَ أوامرَ تُلقى، ولا نواهٍ يُزجر عنها، إنه منهجُ إصلاحٍ وتغيير، ولهذا يدخل فيه كلُّ مصلحٍ وموجهٍ وداعٍ إلى خيرٍ وفضلٍ، وكلُّ محذِّرٍ من شرٍّ ورذيلةٍ وخطأ، لذا فالأمة كلُّها مطالبةٌ بذلك من حيث المبدأ، وليتأمل المؤمن في جانب الخيرية والثناء كيف عمّم جلّت قدرتُه فقال: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾، ولم يقل: (كنتم من خير الأمم)، أو (كانت أمة من خيركم)، بل ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾، وفي الإيجاب والتكليف خفّف سبحانه فقال: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ﴾ آل عمران: ١٠٤، أي: بعضٌ منكم؛ لأن مهمةَ الإصلاح شاقةٌ، قليلٌ من يصبر عليها.

من الخطأ أن يكون النظرُ إلى هذه القضية على أنها خاصةٌ بفئةٍ معينةٍ، أو جهةٍ محددةٍ، كلا، بل الأمرُ عامٌ بدليل قوله ﷺ: «من رأى منكم منكرًا فليغيّرْهُ بيده، فإنْ لم يستطعْ فبلسانه، فإنْ لم يستطعْ فبقلبه، وذلك أضعفُ الإيمان» [رواه مسلمٌ]، ولكن كلٌ بحسبه، والجهةُ التي عيّنها وليُّ الأمر؛ لما من السلطة والصلاحية ما خوّلها إياه وليّ الأمر، أمّا عامّةُ الأمة، فمطلوبٌ من كلّ واحدٍ التغييرُ وإنكارُ الخطأ، وتعديلُ الانحراف، كلٌّ بحسب علمه، وبالأسلوب المناسب، المبني على الحكمة والموعظة الحسنة.

بل إنّ ذلك ليشملُ المخطئ نفسَه، فمطلوبٌ منه أن ينهى نفسَه ويحاسبَها، وينهى غيرَهُ ولو عن الفعلة التي هو واقعٌ فيها، حتى لا يجمعَ بين سيئتين: المعصية، والسكوت عنها، وقد قيل: حقٌّ على أهل الكؤوس أن يتناهوا عن الخمر.

ينبغي أن ننظر إلى هذه الشعيرة من خلال بابها الواسع، فهذا الدين عظيمٌ، شاملٌ للحياة الدنيا والآخرة، رسمَ للبشرية منهجَ السعادة والفوز، فلِمَ لا نكون دُعاةً إليه من خلال هذا المنهج الشامل؟

إنّ الله عزّ وجلّ قال عن هذه الأمة جميعًا: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ آل عمران: ١١٠، فذَكَر المعروف والمنكرَ، وما قال: الحلال والحرام،

لأن المذكورَ في الآية أوسعُ وأشملُ، إنه يشمل كلَّ معروفٍ، وكلَّ منكرٍ في الأخلاق والسلوك والتعامل والعبادات، ومشكلتُنا اليوم أنَّنا حصرْنا ذلك في زوايا ضيقةٍ، وحاكمْنا هذه الشعيرةَ من خلالها، ثم حكمْنا على المجتمع بالهلاك والضياع، وضَعْفِ هذه الشعيرة، وهذا غيرُ دقيقٍ، فإذا فهمتْ الأمةُ أنّ هذه المسؤوليةَ مطلوبةٌ من كلّ فردٍ فيها؛ قام كلٌّ منّا بما عليه، سواءٌ أكان عالمًا، أم متعلّمًا، إعلاميًا، أم مربيًا، تاجرًا، أم غيرَ ذلك.

كلُّ فردٍ منّا ينبغي أن يدعو إلى الهدى، ويُحذّر من الانحراف من خلال موقعه وعمله، وبهذا تكون الأمةُ كلُّها في خيرٍ وإلى خيرٍ، ومن أعظم ما يجب أن يؤمرَ به: الإسلام، وما يُنهى عنه: الشركُ والكفرُ، وهذا ما نرى التهاونَ فيه، وهو المقصودُ الأعظمُ من هذه الشعيرة، فقد جاء في المستدرك عن أبي هريرة رضي الله عنه في قوله الله عز وجل: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ قال: «تجرونَهم بالسلاسل فتدخلونَهم الإسلام» [قال الحاكمُ: هذا حديثٌ صحيحُ الإسناد ولم يخرجاه].

ومن مقاصد هذه الشعيرة العظيمة: دفعُ أسباب العذاب، وتقليلُ صور الفساد، وتكثيرُ مجالات الخير، ومن مقاصدها: الجمعُ والتأليفُ، لا التفريقُ والخصامُ، بدليل كلمة (أُمّة)، وقد وردت أكثرَ من مرةٍ،

وقد جاءت الأفعالُ كلُّها بالجمع، (يأمرون، تأمرون)، أي: أنَّ هذا عملُ الأمة كلّها، بل ذَكَر الله قبل هذه الشعيرة الاعتصامَ والأُلفةَ والأخوةَ، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ﴾ آل عمران: ١٠٣.

وذكرَ بعدها التحذيرَ من التفرّق فقال سبحانه: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ آل عمران: ١٠٥، في إشارةٍ مهمّةٍ إلى ضرورة استحضار هذا المقصد، والاهتمام بالأمر بكلّ ما يُسهمُ في قوة هذه الأمة واجتماعها، والنهي عن كلّ منكرٍ يؤثّرُ في وحدة الأمة واعتصامها.

ومع أنّ أمرَ الناس ونهيَهم قد يكون ثقيلًا على النفس، وقد يحصلُ معَهُ بعضُ النفرة، إلا أنَّ الله نبّهَنا إلى ضرورة التآلف والتقارب، حتى عند التصدّي لهذا الأمر، بل جعل ولايةَ المؤمنينَ لبعضهم هي سببُ إقامتهم هذه الشعيرةَ، تأمل قوله تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ التوبة: ٧١، فقال: ﴿ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾، ولم يذكرْ ذلك مع المنافقين الذين عملوا بضدّ ذلك فقال سبحانه: ﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ ﴾ التوبة: ٦٧.

وعلى هذا الفهم ندركُ أهميةَ الرفق ومحبة الخير للناس، والسعي لإنقاذهم لا لفضحهم، وكم أسهمت الهيئاتُ مشكورةً في جمع الشمل ورأب الصدع، والإنقاذ لكثيرٍ من الأفراد والأُسَر، عن طريق المناصحة والستر.

ولابُدَّ من الفقه في هذا الأمر، وأنَّ الإنكارَ إذا أدّى إلى ما هو أسوأ يُترَكُ، قال ابنُ القيم: «إن النبي ﷺ شرعَ لأمته إيجابَ إنكار المنكر ليحصلَ بإنكاره من المعروف ما يحبُّه الله ورسولُه، فإذا كان إنكارُ المنكر يستلزمُ ما هو أنكرُ منه وأبغضُ إلى الله ورسوله فإنه لا يُسوّغُ إنكارُه، وإن كان الله يبغضُه ويمقتُ أهلَه، وهذا كالإنكار على الملوك والولاة بالخروج عليهم، فإنه أساسُ كلّ شرٍّ وفتنةٍ إلى آخر الدهر، وقد استأذن الصحابةُ رسولَ الله ﷺ في قتال الأمراء الذين يؤخّرون الصلاةَ عن وقتها، وقالوا: أفلا نقاتلُهُم؟ فقال: لا ما أقاموا الصلاة، وقال: «من رأى من أميره ما يكرهُهُ فليصبرْ ولا ينزعنَّ يدًا من طاعةٍ» [رواه مسلم]، ومن تأمّلَ ما جرى على الإسلام في الفتن الكبار والصغار رآها من إضاعة هذا الأصل، وعدم الصبر على منكرٍ، فطلب إزالتَهُ فتولّدَ منه ما هو أكبرُ منه، فقد كان رسول الله ﷺ يرى بمكةَ أكبرَ المنكرات ولا يستطيع تغييرَها، بل لما فتح الله مكةَ وصارت دارَ إسلامٍ، عزمَ على تغيير البيت، وردّه على قواعد

إبراهيمَ، ومنعَهُ من ذلك مع قدرته عليه خشيةُ وقوع ما هو أعظمُ منه، من عدم احتمال قريشٍ لذلك لقرب عهدهم بالإسلام، وكونهم حديثي عهدٍ بكفرٍ؛ ولهذا لم يأذن في الإنكار على الأمراء باليد لما يترتب عليه من وقوع ما هو أعظمُ...

وإنكارُ المنكر أربعُ درجاتٍ -وما زال الكلام لابن القيم- الأولى: أن يزولَ ويخلفَه ضدُّهُ، الثانية: أن يقلَّ وإن لم يزل بجملته، الثالثة: أن يخلفَهُ ما هو مثلُهُ، الرابعة: أن يخلفَهُ ما هو شرٌّ منه، فالدرجتان الأوليتان مشروعتان، والثالثة موضعُ اجتهادٍ، والرابعةُ محرمةٌ.

فإذا رأيت أهلَ الفجور والفسوق يلعبون بـ(الشطرنج) كان إنكارُك عليهم من عدم الفقه والبصيرة، إلا إذا نقلتَهُم منه إلى ما هو أحبُّ إلى الله ورسوله، كرمي النشاب وسباق الخيل ونحو ذلك، وإذا رأيتَ الفسّاق قد اجتمعوا على لهوٍ ولعبٍ أو سماع مُكاءٍ وتصديةٍ، فإن نقلتَهم عنه إلى طاعة الله فهو المراد، وإلا كان تركُهم على ذلك خيرًا من أن تفرغَهم لما هو أعظمُ من ذلك، فكان ما هم فيه شاغلًا لهم عن ذلك، وكما إذا كان الرجلُ مشتغلًا بكتب المجون ونحوها، وخفتَ من نقله عنها انتقالَهُ إلى كتب البدع والضلال والسحر، فدعْه وكتبَهُ الأولى، وهذا بابٌ واسعٌ، وسمعتُ شيخ الإسلام ابن تيمية... يقول: مررت

أنا وبعضُ أصحابي في زمن التتار بقوم منهم يشربون الخمر، فأنكرَ عليهم من كان معي، فأنكرتُ عليه وقلتُ له: إنما حرم الله الخمر؛ لأنها تصدُّ عن ذكر الله وعن الصلاة، وهؤلاء يصدُّهم الخمرُ عن قتل النفوس وسبي الذرية وأخذ الأموال، فدعْهُمْ»(1).

فإذا استحضرْنا مثلَ هذه المعاني والمفاهيم، عرفْنا كيف ومتى ننكر أو نأمر، ولا يعني هذا أنْ نجدَ ذريعةً للتخلي عن هذه الشعيرة، بل كلٌّ منا حسيبُ نفسه، ولهذا كان ممّا ينبغي فهمُهُ: أن المعصية خطأٌ، ولكن عدمَ التناهي عنها قد يكون أعظمَ خطأً، قال تعالى: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴾ المائدة:٧٨-٧٩، فذمَّ الله عصيانَهم، وذمَّ رضاهم بذلك، وبيّن سبحانه أن مسؤوليةَ الإنكار واجبةٌ عليهم حتى مع وقوع المعصية منهم.

الوصية السابعة

الصبر

﴿ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴾

إن سرَّ النجاح والتميز، وسببَ القوة والشجاعة، هو الصبرُ، الذي هو نصفُ الدين، فالدين نصفُه شكرٌ و نصفُهُ صبرٌ، ما أعظمَ شأنَ هذا الخُلق! فلا تكاد تجد فضيلةً إلا وهو أساسُها والمؤثر فيها، فالكرمُ صبرٌ على الإنفاق من قسيم الروح (المال)، والشجاعةُ صبرٌ على المواجهة، والعدلُ صبرٌ على قول الحقّ، والعفو صبرٌ عن الانتقام، والرحمة صبرٌ على العطاء، والعفافُ صبرٌ عن الرذيلة، لهذا أوصى لقمانُ ابنَه به فقال: ﴿ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴾، لأنه يدرك أنّه عُدةُ النجاح، وسبيلُ الفلاح في هذه الدنيا المتلاطمة.

الصبرُ كلمةٌ موجزةٌ لكنها عظيمةٌ، الصبرُ خُلقٌ مُرهَفٌ عظيمٌ، لكنه مثمرٌ مؤثرٌ، الصَّبرُ شجرةٌ جذورُها مُرةٌ وثمارُها حلوةٌ، وقد قيلَ:

حلاوةُ الظفر تمحو مرارةَ الصبر، فانظرْ إلى عاقبته، ولا تنظرْ إلى اسمه، الصبرُ خيرٌ كلُّه، لذا كان من أعظم العطايا، وأثمن الهبات.

الصَّبرُ مثلُ اسمه مُرٌّ مذاقتُهُ
لكنْ عواقبُهُ أحلى من العسل

قال ﷺ: «وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ، وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنْ الصَّبْرِ» [رواه البخاريُّ ومسلمٌ]، وقال الحسنُ: الصبرُ كنزٌ من كنوز الخير، لا يعطيه اللهُ -عز وجلَّ- إلا لعبدٍ كريمٍ عنده. لذا كان الصبرُ هو صفةَ الأصفياء من الأنبياء كما قال سبحانه: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ الأحقاف: ٣٥.

فيا مَن تكاثرت عليه الهمومُ والغمومُ لا تيأسَنَّ فإن الفارجَ اللهُ، فكم من أُناسٍ تكاثرتْ عليهم الديونُ والهمومُ ما زالوا متمسكينَ بدين العزيز الحكيم فكانتْ العاقبةُ لهُمْ.

الصبر خُلُقٌ يظهرُ عندَ الشدائد، ويبرز في الملمّات، عندها يتمايزُ الناس وتظهرُ معادنُهم، قال تعالى: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ﴾ البقرة:١٧٧، إنه عُدّةُ المؤمن، ونبراسُه الذي يزيل به ظلامَ اليأس والقنوط، فمهما عظُم المصابُ، وتكالبت المحنُ،

فسيبقى الصبر سراجًا يُضيء الطريقَ في الظلمات، ويمدُّ لصاحبه في فسحة الأمل، ويزيدُهُ تألُّقًا في دنيا العجائب والغرائب، قال ﷺ: «والصبر ضياء» [رواه مسلم]، لذا نجد الصابرين يُحسنون التصرفَ في الملمّات، ولا تعمى أبصارُهم ولا بصائرُهم بسبب عظم المصيبة، وفداحة الخطب، بل يقفون شامخين، ولا يُصبحون عندَ هبوب ريح الابتلاء أعجازَ نخلٍ مُنقعرٍ، بل هم كالنخلة السامقة التي لا تتوقفُ عن العطاء ولو اشتدَّ الإعصارُ وعظُمت الأخطارُ.

وإن أردت نموذجًا فريدًا في هذا المجال فلنتأملْ قوةَ الصبر في شخصية نبيّنا الكريم ﷺ، في سيرته كلّها، سألت عَائشَةُ رَضيَ اللهُ النَّبيّ ﷺ، فقالت: هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ من يَوْم أُحُدٍ؟ قَالَ: لَقَدْ لَقيتُ منْ قَوْمك مَا لَقيتُ، وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقيتُ منْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَة، إذْ عَرَضْتُ نَفْسي عَلَى ابْن عَبْد يَاليلَ بْن عَبْد كُلالٍ، فَلَمْ يُجبْني إلَى مَا أَرَدْتُ فَانطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهي، فَلَمْ أَسْتَفقْ إلاَّ وَأَنَا بقَرْن الثَّعَالب، فَرَفَعْتُ رَأْسي فَإذَا أَنَا بسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْني، فَنَظَرْتُ فَإذَا فيهَا جبْريلُ فَنَادَاني، فَقَالَ: إنَّ اللهَ قَدْ سَمعَ قَوْلَ قَوْمكَ لَكَ وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ،

وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ، فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ، فَسَلَّمَ عَلَيَّ ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ... إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الأَخْشَبَيْنِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا» [رواه البخاري ومسلم].

وانظر إلى صبر الصدّيق يومَ ماتَ رسولُ الله ﷺ، وهو النحيفُ الأسيفُ، والرجولة لا تُقاسُ بضخامة الأجسام، لكن بالثبات في الملمَّات الجسام، قال في ثقةٍ ويقينٍ أمامَ جموع المسلمين: «مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا ﷺ فَإِنَّ مُحَمَّدًا ﷺ قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ حَيٌّ لاَ يَمُوتُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِين مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ آل عمران: ١٤٤

وقيل: وَاللَّهِ لَكَأَنَّ النَّاسَ لَمْ يَكُونُوا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ الآيَةَ حَتَّى تَلاَهَا أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه فَتَلَقَّاهَا مِنْهُ النَّاسُ، فَمَا يُسْمَعُ بَشَرٌ إِلاَّ يَتْلُوهَا».

إنْ يحسدوكَ على فضلٍ خُصِصْتَ به

فكلُّ منفردٍ بالفضل محسودُ

وتأمل صبرَ يعقوبَ عليه السلام على فراق يوسف، أحبّ أولاده إليه، تأمل بماذا واجه الخبر المفجعَ في فقده وموته: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ يوسف:١٨، انظر إلى حضور هذا الخُلُق عنده، فمن أول لحظةٍ فقد فيها فلذةَ كبده قال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾، و «إنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الأُولَى» [رواه البخاري ومسلم]، وانظر إلى ثباته على ذلك، وتأمل حالَهُ وهو يقولُها مرةً أخرى لـمَّـا فقد ولدَهُ الثاني، شقيقَ يوسف: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾... وقال: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ يوسف: ٨٣ - ٨٦ .

انظر إلى عاقبة ذلك الصبر، كيف جمع الله له شملَهُ، وردَّ له بصرَهُ، وأعلى مكانتَهُ، وأذهب الله دخيلةَ قلوب أولاده، ذلك هو الفرج الذي يكون بعد الصبر.

وقلَّ مَنْ جدَّ في أمـرٍ يحاولُـه

واستصحبَ الصبرَ إلا فازَ بالظفر

وتأمل إلى صبر يوسف عليه السلام حيثُ جمعَ أنواع الصبر الثلاثة: على الطاعة، وعن المعصية، وعلى أقدار الله المؤلمة، لقد صبر على دينه، وثبت على مبادئه، ودعا أهلَ السجن إلى دين الله، وصبر في البئر والسجن، وما فيهما من الأذى والألم، وصبر عن المعصية لما راودَتْهُ امرأةُ العزيز، فأعلى الله شأنَهُ، ورفع مكانَتَهُ، وعوّضَه خيرًا.

يُلحظ هنا كيف وصف لقمانُ الصبرَ وما قبلَهُ من أعمال فقال: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ فأهلُ هذه الصفة لا توقفُهُمْ عقبةٌ، ولا تضعفُهُمْ عاهةٌ، ولا تقعدُهُمْ إعاقةٌ، بل يتجاوزون كلَّ ذلك بفضل الله، لأنّه سبحانه قال: ﴿وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ الأنفال:٤٦، ومَنْ كان الله معه فلن يقفَ أمامَ إرادته شيءٌ، مرّ رجلٌ على آخرَ: مشلولٍ، أعمى، أصمّ، ولسانُهُ يلهجُ بحمد الله، ويقول: الحمدُ لله الذي عافاني مما ابتلى به كثيرًا من خلقه، فتعجب الرجلُ الآخرُ، وقال له: يا أخي ما الذي عافاك اللهُ منه؟ لقد رأيتُ جميعَ المصائب تزاحمتْ عليك، فقال له: إليك عنّي يا بطّالُ فإنه عافاني إذ أطلقَ لي لسانًا يوحّدُهُ، وقلبًا يعرفُهُ، وفي كلّ وقتٍ يذكرُهُ، وقال عروة بن الزبير لما بُترت ساقه: اللهمّ إن كنت ابتليتَ فقد عافيتَ، وإن كنت أخذتَ فقد أبقيتَ، أخذتَ عضوًا وأبقيت أعضاءً، وأخذت ابنًا وأبقيت أبناءً.

الدهرُ يومان: ذا أمنٌ وذا خطرٌ
والعيشُ عيشان: ذا صفوٌ وذا كدرٌ
أمَا ترى البحرَ تعلو فوقَهُ جيفٌ
وتستقرُّ بأقصى قاعه الدررُ
وفي السماء نجومٌ لا عدادَ لها
وليس يُكسَفُ إلا الشمسُ والقمرُ

كلُّنا ستصيبُهُ سهامُ هذه الدنيا، فعلينا بالصبر، ورفع الشكوى إلى القادر عليها، قال الأحنف بن قيس: «شكوتُ إلى عمّي وجعًا في بطني فنهرَني وقال: إذا نزل بك شيءٌ فلا تَشْكُهُ إلى مخلوقٍ مثلك لا يقدرُ على دفع مثله عن نفسه، ولكن اشكُ لمن ابتلاكَ به فهو قادرٌ على أن يفرّجَ عنك، يا ابنَ أخي: إحدى عيني هاتين ما أُبصرُ بها منذُ أربعين سنةً، وما أخبرتُ امرأتي بذلك ولا أحدًا من أهلي».

وإذا عرتْكَ بليةٌ فاصبرْ لها
صبر الكريم فإنّهُ بكَ أرحمُ
وإذا شكوتَ إلى ابن آدمَ إنّما
تشكو الرحيمَ إلى الذي لا يرحمُ

ليس أحدٌ منا بمنجاةٍ من البلاء والمصاب، فإذا وقع على النفس أو المال أو الولد، فلا يحسن بالمؤمن الواثق بربّه، أن يجمعَ إلى ألم المصاب، ذهابُ الأجر والثواب، بل عليه بالصبر والتجلُّد، والرضى والحمد.

امرأةٌ في بلادنا في زماننا هذا، تُرزَقُ بولدٍ فيُصابُ بمرضٍ في قلبه، يتوقّفُ معه ستَّ مراتٍ، يُشرفُ فيها على الموت، وكلما أُخبرت أمُّهُ، قالت كلمتين: الحمد لله، ثم يحصلُ نزيفٌ في رأسه كاد أن يموتَ معه دماغُهُ، وأمُّهُ تقول: الحمدُ لله، ثم يظهر له خراجٌ عظيمٌ في الرأس، وأمُّهُ تقول: الحمدُ لله، ثم تتوقفُ الكلى عن العمل، وأمُّهُ تقول: الحمد لله، ثم يُصابُ بتسمُّمٍ خطيرٍ، وأمُّهُ تقول: الحمد لله، ثم يصاب بالتهابٍ في الغشاء البلوري في الصدر، فيفُتَحُ صدرُهُ حتى يُرى قلبُه، وأمُّهُ تقول: الحمد لله، ويخرج من بعد ذلك وهو على السرير لا يتكلّمُ، ولا يسمع ولا يتحرّكُ، وأمُّهُ تقول: الحمدُ لله، ستةُ أشهرٍ من المعاناة والألم، والأمُّ صابرةٌ، راضيةٌ، شاكرةٌ، فلله درُّها، ويعظُمُ العجبُ إذا علمْنا أنّ هذا المولودَ هو أولُ أبنائها بعد انتظارٍ زادَ على سبعةَ عشرَ عامًا من العُقم، أهذا خيالٌ أم حقيقةٌ؟ بل هو حقيقةٌ، حَدَثَ ذلك في إحدى

مستشفيات بلادنا، وبعد فترة يشفي اللهُ ذلك الطفلَ حتى أصبحَ سليمًا معافىً، يالله ما أعظمَ قدرةَ الله! وما أوسعَ رحمتَهُ! ومن كان مع الله كان اللهُ معَهُ، لقد كانتْ هذه المرأةُ قائمةً لليل، حسنةَ الخُلق، حسنةَ العشرة مع زوجها، فانظروا كيف أكرمها اللهُ، ورفع شأنها، إنه الصبرُ ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ البقرة: ٢٤٩ .

بـالله ثق ولـهُ أنـبْ وبـه استعنْ

فـإذا فعلـتَ فأنـتَ خـيرُ معـان

هذا هو عبد الملك بن مروان يقول: لقد حُببَ إلي الصبرُ حتى خشيتُ أن يضيعَ أجري، فالصبرُ عندَهُ سجيةٌ من السجايا، وسمةٌ من السمات، فكانتْ عاقبتُهُ محمودةً، فقد بنى ملكًا عظيمًا وشرفًا محمودًا لا تغيبُ عنه الشمسُ، فما السرُّ وراءَ ذلك الملك العظيم؟! إنه الصبر.

هذه فضائلُ الصبر، وهذا شأنُ الصابرين، ومما يعينُ العبدُ على الصبر وخصوصًا على المصائب ما ذكرَهُ ابنُ القيم رحمَهُ الله من أسباب ومنها:

أولًا: معرفةُ جزائها وثوابها.

ثانيًا: معرفةُ تكفيرها للسيئات ومحوها لها.

ثالثًا: تيقُّن أنَّها مقدَّرةٌ في أمّ الكتاب قبل أن تُخلقَ، فلا بدّ منها؛ فجزعُهُ لا يزيدُهُ إلا بلاءً.

رابعًا: معرفةُ حقّ الله عليه في تلك البلوى، وهو الصبرُ والرضا... فهو مأمورٌ بأداء حقّ الله وعبوديته عليه في تلك البلوى، فلا بدَّ له منه، وإلا تضاعفتْ عليه.

خامسًا: تذكّرُ أنَّها قد تكون بسبب ذنبه، كما قال الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾ الشورى: ٣٠، فهذا عامٌّ في كلّ مصيبة دقيقةٍ وجليلةٍ، فينشغلُ قلبُهُ بالاستغفار الذي هو أعظمُ الأسباب في رفع تلك المصيبة، قال عليٌّ بنُ أبي طالبٍ: «ما نزل بلاءٌ إلاّ بذنبٍ، ولا رُفع إلاّ بتوبةٍ».

سادسًا: معرفةُ أنّ الله قد ارتضاها له واختارَها وقسَمها، وأنّ العبودية تقتضي رضاه بما رضي له به سيّدُه ومولاه، فإن لم يُوف قدر هذا المقام حقَّه، فهو لضعفه؛ فلينـزلْ إلى مقام الصبر عليها، فإن نزل

عنه نزل إلى مقام الظلم وتعدّي الحقّ.

ركنُ الديانة أنْ تصدّقَ بالقضا

لا خيرَ في بيتٍ بلا أركانِ

سابعًا: العلمُ بأنّ هذه المصيبة هي دواءٌ نافعٌ ساقَهُ إليه الطبيبُ العليمُ بمصلحته الرحيمُ به، الحكيم العزيز فليصبر على تجرُّعه، ولا يردُّه بتسخّطه وشكواه، فيذهبَ نفعُهُ باطلًا.

لا يملكُ العبدُ الضعيفُ لنفسه

رُشْدًا ولا يقدر على خذلان

سبحانَ من يُجري الأمورَ بحكمةٍ

في الخلق بالأرزاق والحرمان

ثامنًا: العلمُ بأنّ في عُقبى هذا الدواء من الشفاء والعافية والصحة، وزوال الألم ما لا تحصلُ بدونه، فإذا طالعت نفسُهُ كراهيةَ هذا الداء ومرارتَه فلينظر إلى عاقبته وحسن تأثيره...

لعلَّ عتبَك محمودٌ عواقبُه

وربّما صحّت الأجسامُ بالعلَلِ

تاسعًا: العلمُ بأنَّ المصيبةَ ما جاءَت لتُهلكَه وتقتلَه، وإنما جاءَت لتمتحنَ صبرَهُ وتبتليَهُ، فيتبينَ حينئذٍ هل يصلُحُ [العبودية ربّه] وجعله من أوليائه وحزبه أمْ لا؟ فإن ثبتَ اصطفاهُ واجتباهُ، وإن انقلبَ على وجهه ونكصَ على عقبيه طُردَ وصُفع قفاهُ.

عاشرًا: العلمُ بأنَّ الله يربّي عبدَهُ على السرّاء والضرّاء، والنعمة والبلاء؛ فيستخرجُ منه عبوديتَهُ في جميع الأحوال.

وبهذا ندركُ أنَّ عُدّةَ الصّبر تكشفُها المواقفُ والمحنُ، ويظهرُ أثرُها عند الصدمة الأولى، والكلامُ عن هذا الخُلق سهلٌ، لكنَّ التربيةَ عليه هي الأهمُّ كما فعلَ لقمانُ مع ابنه.

الوصية الثامنة

التواضع

﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾

الكِبْرُ خُلُقٌ مذمومٌ، يكفي أنه خُلُقُ إبليسَ، وأعظمُ أسباب الانحراف، وهو أولُ ذنب عُصِيَ الله به، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ البقرة: ٣٤، لهذا وجّه لقمانُ ابنَهُ إلى التواضع مع الناس في موعظته له، فقال: ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾.

ذلك أن هذه النابتةَ الخبيثةَ إذا نشأت مع الإنسان أوردَتْه المهالكَ، وإذا تأملْنا هذه الوصيةَ وجدْناها قد شملت النهي عن صورتين

للمتكبرين لا يخرجون عنهما، وذلك أنهم إما أن يُظهروا كبرَهم أمامَ الناس، وإما أن يكونوا منفردينَ.

فجاء النهيُ الأولُ لبيان الصورة الأولى ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ﴾، يا له من خُلُقٍ ما أشنعَهُ! أن يرى الإنسانُ لنفسه فضلًا على غيره، حتى يصلَ به الأمرُ أن يلويَ عنقَهُ إذا كلَّم الناس أو رآهم كبرًا وزهوًا! إنَّ من أبغض الخَلْق إلى الناس مَنْ يظن نفسَهُ في منزلةٍ لا يبلغُها سواهُ، فهو دومًا يزدري غيرَهُ، ولا ينظرُ إليهم إلا من علوٍ، مسكينٌ هذا الإنسانُ، علامَ يشمخُ بأنفه وهو الذي أولُهُ نطفةٌ مذرةٌ، وآخرُهُ جيفةٌ قذرةٌ، وهو بينهما يحملُ العَذِرةَ! والله ما علم أنه يقدّم للآخرين بهذا الخُلق دليلَ ذلّه ومهانته، فالمحبةُ الحقيقيةُ ليست بتصفيق الكفوف بل بتصفيق القلوب.

ففي كلمة ﴿ تُصَعِّرْ ﴾ دلالةٌ بيّنة، وبيانٌ واضح على شناعة صورة ذلك المتكبر المعجب بنفسه، إذ الصَّعَر هو ميلٌ في العنق وانقلابٌ في الوجه إلى أحد الشدقين، وكلمةُ ﴿ خَدَّكَ ﴾ التي تصوّر حالةَ ذلك المغرور المخدوع في ذاته، لقد أظهرَ اللهُ لنا شناعةَ الكِبْر في هذه الصورة التي يتقمّصُها المتكبرُ، وذلك أن اللهَ سبحانَهُ أحسنَ خلْقه، لكنه لما ساء

خُلقُه تغير خَلْقُهُ إلى هذه الصورة الشنيعة، التي رضي أن يكونَ عليها المتكبر، فهو صاحب عنقٍ ملويٍّ ووجهٍ مقلوبٍ، والصورة الثانية تظهر في طريقة مشيه على الأرض التي خُلق منها، وتذكيره بأن مكانَ مشيه هو الأرضُ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ مع أن المشيَ لا يكون إلا في الأرض، فيه إيماءٌ إلى أن مشيَهُ ذاك إنما هو في مكانٍ يمشي فيه الناس كلُّهُم قويُّهم وضعيفُهم، فلا فضلَ له، وفي ذلك موعظةٌ للماشي مرحًا أنه مساوٍ لسائر الناس، فعلامَ الكبر؟!

وإذا كان المتكبرُ قد بنى جبالًا من الكُره في قلوب الناس، فليعلمْ أنّ ربَّ الناس لا يحبُّهُ، ويكفيه ذلك خسارةً ومهانةً قال سبحانه: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾.

إن المتكبرَ يختالُ معجبًا بنفسه، ظانًّا أنّه موقَّرٌ محترَمٌ، وما علمَ أنّهُ مكروهٌ مبغَضٌ، إنّهُ يتعاظمُ لأنّهُ مريضٌ بحبِّ الذات الزائفة، إنه يتكبّرُ لأنه يتجاهلُ الحقائقَ ويعيشُ في الأوهام، إنه يرفعُ هامةً ونسي أنها سُتدَسُّ يومًا في التراب الذي يمشي عليه، وأن جسدَهُ وعظْمَهُ الذي تبختر به، سيكون رفاتًا، وربما داسه الناسُ بأقدامهمْ:

صاح، هذي قبورنا تملأ الرّحـ
ـب فأين القبورُ من عهد عاد؟
خفف الوطءَ ما أظنُّ أديمَ الأر
ض إلا من هذه الأجساد
وقبيحٌ بنا، وإن قدُم العهـ
ـدُ، هوانُ الآباء والأجداد
سرْ إن اسطعتَ في الهواء رويدًا
لا اختيالًا على رفات العباد
رُبَّ لحدٍ قد صار لحدًا مرارًا
ضاحكٍ من تزاحم الأضداد
ودفينٍ على بقايا دفينٍ
في طويل الأزمان والآباد

إنها دعوةٌ من خلال هذه الوصية إلى التواضع في الكلام والتعامل، إنها صفةُ المؤمنين الصادقين عباد الرحمن ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا﴾ الفرقان: ٦٣.

مهما عَلَتْ مرتبتُكَ، أو زادت أرصدتُك؛ فأنت في النهاية إنسانٌ مثلُ أيِّ إنسانٍ، عليك أن تتعامل مع البشر على أنهم بشرٌ، ليرفعَكَ الله ويُعلي قدرَكَ، وتذكر أننا كلَّنا لله عبادٌ، كلنا أرواحٌ في أجساد، وراجع نفسَكَ قبل أن تُغريَك بشيءٍ من الزهو والخيلاء، وتذكّر كيف أن أعظمَ الناس قدرًا دُنيا وأخرى، هو محمدٌ ﷺ، عاش متواضعًا، ومات متواضعًا، وأمرَ بذلك وحثّ عليه فقال ﷺ: «مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ من مَالٍ، وَمَا زَادَ اللهُ عَبْدًا بعَفْوٍ إلاَّ عِزًّا، وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لله إلاَّ رَفَعَهُ اللهُ» [رواه مسلم].

ولهذا لم يرضَ له ربُّهُ إلا عظَمةَ التواضع، عصمةً من رذيلة الكبْر، ولهذا عاتبَهُ ربُّهُ جلت قدرتُهُ، وهو آيةُ الأخلاق وشرفُها، وهو الممدوح من ربِّ العالمين ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ القلم: ٤، عاتبه اللهُ في القرآن أكثرَ من مرةٍ في التعامل مع الضَّعَفَة والمساكين فقال جلت قدرتُهُ: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ﴾ عبس: ١ - ٢، وقال سبحانه: ﴿ وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا ﴾ الكهف:٢٨،

وهو ﷺ لم يزدريهم، ولم يتكبّر عليهم، لكنه كان يأمل في إسلام أولئك الكُبراء، الذي كانوا يتكبرون على هؤلاء المساكين، ويطلبون من النبي ﷺ إبعادَهُم عن مجلس النبي ﷺ، عَنْ سَعْدٍ قَالَ كُنَّا مَعَ النبي ﷺ ستة نَفَر فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ للنبي ﷺ اطْرُدْ هَؤُلاَءِ لاَ يَجْتَرِئُونَ عَلَيْنَا، قَالَ وَكُنْتُ أَنَا وَابْنُ مَسْعُودٍ وَرَجُلٌ من هُذَيْلٍ وَبِلاَلٌ وَرَجُلاَن لَسْتُ أُسَمِّيهِمَا، فَوَقَعَ في نَفْسِ رَسُولِ اللهِ ﷺ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَقَعَ، فَحَدَّثَ نَفْسَهُ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ الأنعام: ٥٢ [رواه مسلم].

هكذا يعلمنا ربُّنا من خلال هذه الأحداث كيف نطرد من نفوسنا أيَّ نابتةٍ للكبْر يمكن أن تعرضَ للقلب، فالكبْر شرٌّ كلُّهُ، سوءٌ كلُّهُ، ضررُهُ ظاهرٌ، وذمُّهُ جليٌّ، ومن شروره بغضُ الخَلْق لك، هل أدركت أنه أسرعُ وسيلةٍ لزرع الكره في القلوب، وأن التواضع أقدرُ الأخلاق على انتزاع حبّ الناس لك، فاخترْ أن تكون مكروهًا في كلّ القلوب، أو أن تكون محبوبًا في كلّ القلوب، فلو تذكَّرَ المتكبّرون أهوالَ يوم القيامة وتذكَّروا ظُلمةَ القبر، والدودَ الذي يأكلُ أجسادَهُمْ لجعلوا التواضعَ شعارَهُم ولينَ الجانب اهتمامَهُم.

الكبْر -زيادةً على ذلك- هو أعظمُ سببٍ لجحد الحقّ، قال تعالى عن إبليس: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ الأعراف: ١٢ - ١٣، وقال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ النمل: ١٤، وتذكر قولَهُ تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ الأعراف: ١٤٦، وفي المقابل: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ القصص: ٨٣.

واعلم أنه ما من خُلقٍ ذميمٍ إلا وصاحبُ الكبْر مضطرٌ إليه ليحفظَ زهوَهُ وخُيلاءَهُ، وما من خلقٍ حميدٍ إلاّ ويتنازلُ عنه ليحفظَ كبْرَهُ، فلا يترك له هذا الكبرُ خُلقًا من أخلاق أهل الجنة إلا جرّدَهُ منه، ولا غرابةَ أن يخبرَنا ﷺ بأنه «لا يدخلُ الجنةَ مَنْ كان في قلبه حبةُ خردلٍ من كبرٍ» [أخرجه مسلم]، ولا يترك له خُلقًا من أخلاق النار إلا أصابهُ منه نصيبٌ، قال ﷺ: «أَلاَ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ كُلُّ ضَعِيفٍ مُتَضَعِّفٍ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لأَبَرَّهُ، وَأَهْلِ النَّارِ كُلُّ جَوَّاظٍ عُتُلٍّ مُسْتَكْبِرٍ» [رواه البخاري].

فلنبتعد عن غرور النفس، ونزغ إبليس، حتى لا يجرَّنا الشيطانُ إلى ذنبه الذي عَصَى اللهَ به، ولنذكر أن الله -جلّت قدرتُه- لا يرضى أن ينازعَهُ أحدٌ في صفته (الكبرياء)، قَالَ رسول الله ﷺ: «قَالَ الله -عز وجل-: «العزُّ إزَاري، والكبرياءُ ردائي، فَمَنْ يُنَازعُني في وَاحدٍ منهما فَقَد عَذّبتُهُ» [رواه مسلم].

الكبْر صفةُ الناقصينَ من البشر، والتواضعُ سمةُ العظماء، يُحكى أن ضيفًا نزل يومًا على الخليفة عمرَ بن عبد العزيز، وأثناءَ جلوسهما انطفأَ المصباحُ، فقام الخليفةُ عمرُ فأصلحَهُ، فقال له الضيفُ: يا أميرَ المؤمنين، لِمَ لَمْ تأمرْني بذلك؟ أو تدعو من يصلحُهُ من الخدم، فقال الخليفةُ له: قمتُ وأنا عمرُ، وعُدْتُ وأنا عمرُ.

فلما كان المتكبرون أحقرَ الناس في قلوب الناس في هذه الحياة؛ وإنْ علَت مراتبُهُم، وكثُرت رواتبُهم، كانوا يومَ القيامة أحقرَ الناس في أعظم المواقف مهابةً وهَوْلًا، والجزاءُ من جنس العمل، قال ﷺ: «يُحشَر المتكبرون يوم القيامة أمثالَ الذر في صور الرجال، يغشاهم

الذَّرِّ من كلِّ مكانٍ، يُساقون إلى سجنٍ في جهنمَ يُقالُ له: بولس، تعلوهم نارُ الأنيار، يُسقون من عصارة أهل النار طينة الخبال» [رواه النَّسائيُّ والترمذيُّ واللفظُ له وقال: حديثٌ حسنٌ].

وقد يُعاقبون في الدنيا بنقيض قصدهم، قَالَ ﷺ: «بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمشي في حُلَّةٍ تُعْجِبُهُ نَفْسُهُ، مُرَجِّلٌ رَأْسَهُ، يَخْتَالُ في مَشْيَتِه، إذْ خَسَفَ اللهُ به، فَهُوَ يَتَجَلْجَلُ في الأَرض إلَى يَوْم القِيَامَة» [متفقٌ عَلَيْه]. (مُرَجِّلٌ رَأسَهُ) أي: مُمَشِّطُهُ، (يَتَجَلْجَلُ) بالجيمين أيْ: يَغُوصُ وَيَنْزِلُ.

والمتكبرون يُحرمون قُرْبَه ﷺ، قال عليه الصلاة والسلام: «إنَّ من أحبِّكُمْ إليَّ وأقربِكُم منّي مجلسًا يومَ القيامة أحاسنُكُمْ أخلاقًا، وإنَّ أبغضَكُمْ إليَّ وأبعدَكُمْ منّي يومَ القيامة الثرثارون والمتشدِّقون والمتفيهقون» قالوا: يا رسولَ الله، قد علمْنا الثرثارون والمتشدقون؛ فما المتفيهقون؟ قال: «المتكبِّرون» [رواه الترمذي وقال: حديثٌ حسنٌ].

والكبرُ ليس في جمال الملبس بل فيما ينطوي عليه القلبُ، ويظهرُ في معاملة الخلق، قَالَ ﷺ: «لاَ يَدْخُلُ الجنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِه مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ» فَقَالَ رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا، وَنَعْلُهُ حَسَنَةً؟ قَالَ: «إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الجَمَالَ، الكِبْرُ: بَطَرُ الحَقِّ وَغَمْطُ النَّاس» [رواه مسلمٌ]. (بطَرُ الحَقِّ): دَفْعُهُ وَرَدُّهُ عَلَى قَائله، وَ(غَمْطُ النَّاس): احتقَارُهُم.

هذا هو الكبرُ، تعاظمٌ كاذبٌ، وعاقبةٌ وخيمةٌ مذلَّةٌ، وذاك هو التواضعُ رفعةٌ وعلوٌّ، وقربٌ من الخلق والخالق.

الوصية التاسعة

القصد في المشي والغضّ من الصوت

﴿ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ
إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴾

ما يزال التوسُّطُ والاعتدال أمرًا محمودًا في كل ملّةٍ، وفي كلّ عقلٍ، وفي كل خُلُقٍ، وهذا ما خَتَم به لقمانُ وصيتَهُ لابنه حيثُ قال له: ﴿ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴾، وقد اشتملتْ هذه الوصيةُ على أدبين عظيمين: القصد في المشي، والغضّ من الصوت، وكلاهما خلقٌ محمودٌ، وأدبٌ مطلوبٌ.

إنّ اهتمامَ لقمانَ بمثل هذه الأخلاق، بمثل هذه الجزئيات من الآداب؛ ليَدلُّ على أنّ التربيةَ يجب أن تكونَ متكاملةً غيرَ منقوصةٍ، فإذا كان لقمانُ قد بدأ مع ولده بالوصية بالتوحيد والنهي عن الشرك،

فإنه قد انتهى معه في وصيته الجامعة إلى آداب المشي والصوت، وهذا كلُّه يعني ضرورةَ الاهتمام بالكليات والجزئيات في التربية.

فلتتأمل قولَهُ لولده: ﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ﴾، بعد تشنيع الكبر في عينه بقوله: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾، إن لقمانَ لا يريد ولدَهُ متبخترًا متكبرًا، يضربُ الأرضَ برجله زهوًا وفخرًا، ولا يريدُهُ أيضًا متهاوتًا ضعيفًا هزيلًا، بل يريد له الخيرَ، يريد له التوسُّطَ (القصد).

وبهذا التوجيه تكتملُ الآدابُ عند هذا الابن؛ فبعدما بيّن له أبوهُ آدابَ حسن المعاملة مع الناس، قفّاها بحسن الآداب في خاصة نفسه، في المشي والتكلُّم، فأما المشيُ فقد وجّههُ فيه إلى القصد، بعد النهي عن الخيلاء، وهذا يعني التوسُّطَ فلا إفراطَ ولا تفريطَ، إنه يريده مجانبًا لوثب الشُّطار واللصوص، ودبيب المتماوتين الضعفاء، عن ابن مسعودٍ رضي الله عنه قال: «كانوا ينهون عن خبب اليهود، ودبيب النصارى»، والقصْد في الأفعال كالقسط في الأوزان، والقصْدُ والتوسُّطُ أمرٌ محمودٌ دومًا في كلّ فعلٍ أو قولٍ، أو صفةٍ أو أدبٍ.

فليكنْ لك اهتمامٌ بتوجيه أولادك لمثل هذه الآداب، واذكر لهم صفةَ مشي نبيّنا الكريم ﷺ، الذي كان يمشي مشيةَ الواثق المتواضع، لقد كان

أشدَّ الناس تواضعًا وقربًا من الخَلْق، ومع هذا كان أقواهم مشيًا، عن أبي هريرة قال: «ما رأيت أحدًا أسرعَ في مشيته من رسول الله ﷺ، كأنّما الأرضُ تُطوى له، إنّا لنُجهدُ أنفسَنا، وإنّهُ لغيرُ مُكترثٍ»، وقال مرةً: «إذا مشى ﷺ تقلّع» [والتقلّعُ: الارتفاعُ من الأرض بجملته، كحال المنحطّ من الصبب].

قال ابنُ القيم: «وهي مشيةُ أولي العزم والهمة والشجاعة، وهي أعدلُ المشيات، وأروحُها للأعضاء، وأبعدُها من مشية الهَوَج والمهانة والتماوت، فإنَّ الماشيَ إما أنْ يتماوتَ في مشيه ويمشي قطعةً واحدةً، كأنه خشبةٌ محمولةٌ، وهي مشيةٌ مذمومةٌ قبيحةٌ، وإمّا أن يمشيَ بانزعاج واضطرابٍ مشيَ الجمل الأهوج، وهي مشيةٌ مذمومةٌ أيضًا، وهي دالةٌ على خفَّة عقل صاحبها، ولا سيّما إنْ كان يُكثرُ الالتفاتَ حالَ مشيه يمينًا وشمالًا، وإما أن يمشيَ هونًا وهي مشيةُ عباد الرحمن كما وصفَهُمْ بها في كتابه... وهي مشيةُ رسول الله ﷺ؛ فإنه مع هذه المشية كان كأنّما ينحطُّ من صببٍ، وكأنما الأرضُ تُطوى له، حتى كان الماشي معه يُجهدُ نفسَهُ، ورسول الله ﷺ غيرُ مكترثٍ، وهذا يدلُّ على أن مشيتَهُ ﷺ لم تكنْ مشيةَ تماوتٍ ولا مهانةٍ، بل هي أعدلُ المشيات... وكان ﷺ يمشي حافيًا ومنتعلًا، وكان يماشي أصحابَهُ فرادى وجماعةً، ومشى في

بعض غزواته مرةً فدُميَتْ أصبعُهُ، وسال منها الدمُ فقال: هل أنتَ إلا أصبعٌ دُميتَ... وفي سبيل الله ما لقيتَ»[1].

وذُكر أن عمرَ بنَ الخطاب رضي الله عنه رأى رجلًا يمشي منكّسًا رأسَهُ، متماوتًا في مشيته؛ فضربَهُ بالدرّة، وقال: لا تُمِتْ علينا الإسلامَ.

فبهذا ندرك أنه إذا كان الفخرُ الزائفُ، والتكبّر مذمومًا في الإسلام، فلا يَقِلُّ عنه في الذمّ الضعفُ والهوانُ، والخورُ والهزالُ، قال ﷺ: «المؤمنُ القويُّ خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف» [رواه مسلم وأحمد وغيرهما].

لهذا ينبغي على المسلمين عمومًا، والشباب خصوصًا؛ أن يدركوا أنّ المشي وهيئتَهُ هو أحدُ معالم شخصية الإنسان، وإذا كانت القوةُ في المشي دون بطرٍ ولا رياءٍ هي المطلوبةُ في مشية الرجال، فإن الممدوحَ في مشية النساء هو الحياءُ، قال تعالى عن إحدى ابنتي الرجل الصالح: ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ القصص: ٢٥، فمن غيرِ المقبول أن يمشيَ الرجلُ مشيةَ المرأة، ولا المرأةُ مشيةَ الرجل فكلٌّ مُيسّرٍ لما خُلقَ له.

وإنما قال لقمانُ لابنه: ﴿ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ ﴾، ولم يقُلْ: (واقصد مشيك)؛ لأنه يريد تهذيبَ صفة المشي، لا المشيَ ذاتَهُ، بأن يقللَ منه، أو يكثرَ منه، بل المرادُ هو الهيئةُ والصفةُ، فإن مجرد المشي لا يُذمُّ ولا يُمدحُ، ونسب المشي إليه فقال: ﴿ مَشْيِكَ ﴾ لينبهَهُ إلى ضرورة عنايته بما يخصُّهُ، لأن هذا الأدبَ يتعلق بأمرٍ خاصٍ به.

ولما نبهه على أدب المشي، كمّل له ذلك بأدب الكلام فقال لابنه: ﴿ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ﴾، فربط بين المشي والصوت، لِـمَا لهما من دلالاتٍ ومعانٍ، ودائمًا نجد تلازمًا بين لغة الجسد ولغة الكلام، ونجد ذلك بصورة أدق بين المشي والمنطق، وقد رأينا ذلك في هذه الوصية، وفي وصف الفتاة التي جاءت إلى موسى ﷺ، وكذلك في صفة عباد الرحمن، حيث قال سبحانه عنهم: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾ الفرقان: ٦٣.

فلا يحسن بالإنسان أن يرخيَ لنفسه العنانَ، فلا يعرف كيف يتكلم، فهو إما ضعيفُ الصوت لا يُفهم كلامُهُ، ولا يُسمع همسُهُ، وإما هو نابيُّ الصوت، إذا تكلم صكَّ الآذانَ، وملأَ المكانَ صياحًا وصراخًا، كلاّ، لا هذا ولا ذاك، بل التوسطُ والقصْدُ هو المطلوبُ ﴿ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ﴾، وإنما أمرَ بالغضّ لأن السوءَ واللومَ والذمَّ والأذى يكون في حدة الصوت

وقوته أكثرَ من خفضه، لذا هذّب الله أخلاقَ أصحاب نبيه ﷺ من خلال توجيهٍ ربانيٍّ يتعلق بالأدب في طريقة الكلام وإخراج الصوت فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ الحجرات: ٢ - ٥.

ولو تأمّلَ الإنسانُ حالَهُ بين هذه المخلوقات، لوجدَ أنَّ المقبولَ في الشارع البشريّ هو الصوتُ الهادئ، وأنَّ المذمومَ هو الصراخُ والصياحُ، بينما نجدُ في عالم الحيوان قوةَ الصوت وشدتَهُ، ولأجل التنفير من هذا الأمر قال لهُ: ﴿ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴾، لمَا يُعرف عنها من علوّ الصوت وشناعته، من غير حاجة، وأولُ صوتها زفيرٌ وآخرُهُ شهيقٌ، وهما فعلُ أهل النار، فاجتمعَ فيها القُبحُ كلُّهُ، فعلى المؤمن أنْ يدركَ أنَّ مثلَ هذه الآداب مما اعتنى به الإسلامُ، ولا يحسن ما يفعلُهُ بعضُ الناس من عدم الالتفات إلى هذا التهذيب في المشي أو الكلام، فتجدُهُ يصرخُ بأعلى صوته دونَ حاجةٍ،

أو يقهقهُ بصوتٍ مرتفعٍ، فينظرُ له الناسُ متعجبين مستغربين، وهو لا يشعرُ ولا يهتمُّ، مثلُ هؤلاء فقدوا هذا الحسَّ المرهفَ، يفعلون ذلك في الأسواق والأماكن العامة دون عنايةٍ بذوقٍ ولا أدبٍ، جاء في صحيح البخاري في صفة النبيِّ ﷺ: «ليس بفظٍّ ولا غليظٍ، ولا صخَّابٍ بالأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئةَ، ولكن يعفو ويغفرُ».

فلا بُدَّ أنْ ندركَ أن هذه الأمورَ من ديننا فنعتنيَ بها، ولنتميزَ من خلالها، فنحن نتبع دينًا عظيمًا مربيًّا شاملًا كلَّ مناحي الحياة، فكن متميزًا بدينكَ وتعاليمه وآدابه.

ذكر السعدي في تفسيره[1] أن هذه الوصايا، التي وصّى بها لقمانُ ابنَهُ، تجمعُ أمهات الحِكَم، وتستلزم ما لم يذكرْ منها، وكلُّ وصيةٍ يُقرَنُ بها ما يدعو إلى فعلها إن كانت أمرًا، وإلى تركها إن كانت نهيًا، وهذا يفسّرُ ما ذُكرَ من وصف الحكمة في أولها، إذ هي العلمُ بالأحكام، وحِكَمها ومناسباتها، ولو نظرنا لوجدنا لقمانَ أمَرَ ولدَهُ بأصل الدين، وهو التوحيدُ، ونهاه عن الشرك، وبيّن له الموجبَ لتركه، وأمرَهُ ببرّ الوالدين، وبيّن له السببَ الموجبَ لبرّهما، وأمرَهُ بشكره وشكرهما، ثم احترزَ بأنَّ محلَّ برّهما وامتثال أوامرهما، ما لم يأمرا بمعصيةٍ، ومع

ذلك فلا يعقُّهما، بل يحسنُ إليهما، وإن كان لا يطيعُهما إذا جاهداه على الشرك، وأمره بمراقبة الله، وخوّفه القدومَ عليه، وأنه لا يغادرُ صغيرةً ولا كبيرةً من الخير والشر، إلا أتى بها.

ونهاهُ عن التكبُّر، وأمرَهُ بالتواضع، ونهاه عن البطر والأشر، والمرح، وأمرَهُ بالسكون في الحركات والأصوات، ونهاه عن ضدّ ذلك.

وأمرَهُ بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وإقامة الصلاة وبالصبر، اللَّذين يسهلُ بهما كلُّ أمرٍ، كما قال تعالى فحقيقٌ بمن أوصى بهذه الوصايا، أن يكون مخصوصًا بالحكمة، مشهورًا بها، ولهذا من منّة الله عليه وعلى سائر عباده، أنْ قصَّ عليهم من حكمته، ما يكونُ لهم به أسوةً حسنةً.

وختامًا فهذا ما تيسر جمعه من لمحات وإيحاءات حول هذه الوصايا العظيمة، نسأل أن ينفع بها كاتبها وقارئها، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

فهرس أهم المراجع

١- أحكام أهل الذمة، ابن قيم الجوزية، تحقيق: يوسف أحمد البكري - شاكر توفيق العاروري (رمادى للنشر - دار ابن حزم - الدمام - بيروت، ط١، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م).

٢- إعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن قيم الجوزية، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد (دار الجيل - بيروت، ١٣٩٣هـ-١٩٧٣م).

٣- التحرير والتنوير، ابن عاشور (دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م).

٤- تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد سلامة (دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٢، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م).

٥- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق (مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م).

٦- روضة المحبين ونزهة المشتاقين، ابن قيم الجوزية، (دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م).

٧- زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن قيم الجوزية، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، عبد القادر الأرناؤوط (مؤسسة الرسالة، ط١٤، ١٤٠٧هـ- ١٩٨٦م).

٨- سنن أبي داود، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد (دار الفكر).

٩- فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر (دار السلام، ط١، ١٤٢١هـ-٢٠٠١م).

١٠- فيض القدير شرح الجامع الصغير، المناوي (المكتبة التجارية الكبرى، مصر، الطبعة الأولى، ١٣٥٦هـ).

١١- مجموع الفتاوى، ابن تيمية، تحقيق: أنور الباز - عامر الجزار (دار الوفاء، ط٣، ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م).

بحمد الله تعالى